

يرشي كراتوخفيل

ثعلبة في ثوب امرأة

ترجمة: خالد البلتاجي

رواية



ثعلبة فف ثوب امرأة

فرشي كراتوخبفل

خالد البلتاجي / مترجم مصري وأستاذ اللغويات والترجمة بكلية الألسن جامعة عين شمس بالقاهرة، حاصل على دكتوراه في علوم اللغة التشيكية من جامعة تشالز ببراغ؛ ترجم العديد من الأعمال الأدبية والدراسات المتخصصة في علم المصريات والسياسة والاجتماع من اللغتين التشيكية والسلوفاكية، منها رواية "الخلود" للأديب التشيكي العالمي ميلان كونديرا، والبلتاجي عضو اتحاد الكتاب المصري ونادي القلم الدولي.

ثعلبة في ثوب امرأة

طبعة 2022

رقم الإيداع: 2021/27101

التقديم الدولي: 1-234-821-977-978

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any form or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فتى

علاء التويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

Realization of this book was supported by the Ministry of Culture of the Czech Republic.

This is a full translation of "LiSka v d6mu" by Jiiri Kratochvil

© Jiří Kratochvil, 2019

© Druhé město – Martin Reiner, 2019

دو كافي
SEFSAPA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAPA.NET
setsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

يرشي كراتوخفيل

ثعلبة في ثوب امرأة

ترجمة

خالد البتاجي

سفا
SEFSafa PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSafa.NET

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشؤون الفنية

كراتوخفيل، يرشي

ثعلبة في ثوب امرأة:رواية/ يرشي كراتوخفيل، ترجمة: خالد
البلتاجي

الجيزة، دار صفافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١

٢٠٨ ص، ٢٠ سم

تدمك ١-٢٣٤-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص التيشيكية

أ- البلتاجي، خالد (مترجم)

ب- العنوان

٨٩١،٨٦٣

رقم الإيداع: ٢٠٢١/٢٧١٠١

المحتويات

الجزء الأول 9

التبني

الجزء الثاني 81

المهمة

الجزء الثالث 145

الوصية

إلى كل الثعالب في حياتي

الجزء الأول

التَّبَيُّ

دار الزعيم في صمت حول لوحة شخصية له، رسم ضخم بألوان مبهجة، ثم التفت من حوله، وقال لنفسه: هذا إذاً في معبد العلوم الأعجوبة، بُني بالكامل حسب نظرية الاستجابة الشرطية، كحال التوابيت المصرية. أهذا من روث الإبل، ربما؟

وقفوا أمامه يرتدون معاطف بيضاء ملوثة ببعض من روث الحيوانات، كما يليق بعملهم البحثي.

- أين هي، أيها الشباب؟

رافقوه عبر متاهة الطرقات حيث رأى لوحتين شخصيتين له، وواحدة لإيفان بافلوف. قال الرجل لنفسه: السؤال بالطبع هو: أيجوز أن تكون صورة إيفان بافلوف بنفس حجم صورتي؟ لا بد من الحفاظ على تسلسل هرمي بين من جعل لعاب الكلاب يسيل بأمر منه، ومن فعل نفس الشيء مع العالم كله. حسنًا، سأطلب منهم تصغير حجم صورة إيفان بافلوف، أو تكبير صورتي. سأترك لهم القرار - للشباب - ليختاروا ما يرونه مناسبًا، وليشعروا أن لهم حرية القرار. فهم يستحقون هذا نظير ما حققوه من نجاح في نظرية الاستجابة الشرطية. سنرى ما حققوه من ميراث الأكاديمي الراحل.

لأول مرة يرى هنا هجرسًا في عرين صغير خلف الزجاج، ثعلبة صغيرة.

قال أمرًا:

- ارفعوا هذا الزجاج!

- عفواً، أيها الزعيم، لا ننصح بخطوة كهذه. صحيح أنها تدربت على بعض الأمور، لكن ما زالت تحمل غرائز حيوانية. وأسنانها حادة بدرجة كبيرة.

- ارفعوا هذا الزجاج!

مد الزعيم يده دون خوف، فانتصبت الثعلبة على قدميها الخلفيتين في الحال، واهتزت بصورة استعراضية، وقالت بنبرة يعوزها التدريب: تحياتي، يا يوزيف فيساريونوفيتس، يا رائد العام والخاص الخالد.

تجمدت أوصال الزعيم للحظات، ثم استكمل حركاته، ولمس بسبابته شعراً أحمر على رأس الثعلبة الصغيرة. سحب يده، ثم رفعوا الزجاج، فاعتدلت الثعلبة على أرجلها الأربع.

- رائد العام والخاص الخالد... من أين لك بهذا الكلام؟

- من بنات أفكارى.

- أفضل منه أن تقولي: بناء عالم العدل الخالد. كما أن مخارج الألفاظ ليست كما ينبغي!

- سنصلح كل شيء، أيها الزعيم، في المرة القادمة ستصبح

ثعلبة كوموسمولية⁽¹⁾. وبالطبع لا يجوز أن تخاطبك دون تكلف.

- حذار من هذا الأمر، حافظوا على الخطاب دون تكلف، من البديهي أن الزعيم لديه علاقات مباشرة مع كل العالم الطبيعي. سأرعى هذه الثعلبة بنفسني. سأخذ بيدها، وأصل بها أعلى المراتب. ستروني هنا في كل لحظة.

جلس من بعدها في سيارته الليموزين زيل، وأكمل فكرته يقول:

- لا شك في أنهم نجحوا في الذهاب إلى ما هو أبعد من سيلان لعاب الكلاب الأكاديمية، لكن وضع نظام إشارات آخر في رأس حيواناتنا لا يقل أهمية عن إطلاق أقمار سبوتنك إلى الفضاء. فلهذا الأمر شأن عام وآخر عسكري على وجه الخصوص، ولكي نستطيع الاستثمار في أرجاء هذا الكوكب علينا أن نسيطر على ما فوقه في الفضاء وما تحته، بدءاً مما في رأس الحيوانات.

يتنقل الزعيم كثيراً في هذه الأيام بين موسكو وجودروم⁽²⁾ بيتر الأكبر، بين الكرملين ومعهد إيفان بافلوف.

1- كَمَسْمُول هو اتحاد الشباب الشيوعي اللينيني في الاتحاد السوفيتي، هي منظمات الشباب الشيوعي الموحدة التي أسسها وطورها ووضع برامجها وأنظمتها الداخلية الشيوعيون الشبان تحت إشراف حزب البلاشفة قبل وبعد انتصار الثورة البلشفية سنة 1918. (المترجم)

2- تعني «بيت» في اللغة الروسية. (المترجم)

نحن الآن في نهاية الأربعينيات، لنقل في شهر سبتمبر أو أكتوبر من عام 1948، حيث يرحل عمال السكة الحديد من مبنى كبير تابع لهيئة السكة الحديد في شارع لينين بمدينة برنو ليحل محلهم رجال الشرطة، بالتحديد نخبة رجال الشرطة، قطاعات تابعة لأمن الدولة، وتحديدًا شرطة أمن الدولة. جاء زمن رجال الشرطة، وعلى رجال السكك الحديد أن يوسعوا لهم الطريق. سيارات نقل تابعة للسكة الحديد تلتهم الأثاث، بينما يتساقط أثاث بديل من عربات الشرطة.

أمطار خفيفة تسقط، فيتراجع الطرفان، تتجمع مكاتب رجال الأمن الوطني الجديد في دهليز الطابق الأرضي، ومعها طاوولات رجال السكة الحديد القديمة الذين حرصوا على إظهار ابتسامات الود لرجال الأمن الوطني، بينما يرد عليهم رجال الشرطة بابتسامات ساخرة، يمدون لهم أيديهم بالسجائر، وهم يقولون: أمريكا! قال أحد عمال السكة الحديد لنفسه وهو محشور بين رجلي شرطة ومنضدة تابعة للسكة الحديد: حمدًا لله! لقد ذهب الشر، ويبدو، حتى الآن، أنهم أخيار مثلنا.

توقف المطر، وتحركت المقاعد والمكاتب، والخزانات، والصناديق، والأرفف، والكومودات، والبارافانات في كلا الاتجاهين. نرى الآن وسط عمال النقل بطلنا الوسيم الذي سنطلق عليه اسم بافليك، ملفوفًا بأشرطة حمل الأثاث وسط عمال السكة

الحديد بنفس هيئته، يحاول أن يبادلهم الابتسامة، لا السجائر، فهو لا يدخن حتى الآن.

- يا بافليك، فك هذه الأشرطة، فلدينا هنا من يتولى هذه الأمور. تعال! ستجلس هنا، هنا سيكون مكتبنا الصغير، وأنا مدير.

جلس بافليك منصاعاً لطلبه، بينما القبطان ميشنا يتجول في الحجرة التي خصصوها له، يمرر كفيه على الحائط، وينظر إلى الحائط المقابل حيث برز عليه مسمار. تعثرت قدماه في أوراق مبعثرة، واصطدم بشيء وسط المكاتب. أشعل سيجارة، ومد يده لبافليك الذي هز رأسه بالرفض.

- ينبغي عليك أن تتعلم التدخين، فهو من شيم الرجال.

كان يبحث عن عامل يصنعه على يديه، ويعول عليه؛ لذلك جمع بيانات عن كل شركات مدينة برنو (بما فيها شركات الملابس وعمالها)، أرادها أيضاً أن يكون دقيقاً في عمله، فذهب إلى تلك الشركات، وسجل ملاحظات بناء على سجلاتها حول شباب العاملين الذين ظن أنهم موهوبون أكثر من غيرهم، اتصل ببعضهم، وتحدث معهم حتى عثر وسطهم على بافليك. شاب مجتهد، يعول عليه، سهل القيادة، قادر في الوقت نفسه على صنع المبادرات كلما اقتضت الحاجة. هذا هو ما يبحث عنه ميشنا تحديداً. لم يقرر هذا حسب سجلات العاملين، ولا حتى من المقابلات المباشرة، بل قرر هذا بناء على شعور داخلي أو حدس

ربما. كان القبطان ميشنا على دراية فائقة بطبائع البشر. هبة لم تخطئه يوماً، وأقر بها كل زملائه في المركز الرئيس، وأصابتهم جميعاً بالارتباك. انتابهم بعض الخوف من طبيعة ميشنا هذه دون أن يصرحوا به.

- نحن في حاجة إلى شباب، رجال قانون يتصفون بالجرأة، سواعد قوية لإقرار العدالة. لقد بحثت بكل عناية، فاخترتك أنت. مع الوقت ستولى مهام في غاية الحساسية، لكننا سنجربك في البداية لبعض الوقت.

ثم حمل كرسيًا ووضعه بجوار مقعد بافليك:

- كما قلت، مهمة خاصة، شديدة الحساسية. وقبل أن أكلفك بها لا بد أن تجتاز بعض الاختبارات الضرورية. وحتى هذا الوقت سوف ستظل، كما يقولون تمسح الرصيف، ينتظرك شهر من الأعمال القذرة. مهام تبدو بسيطة، وتافهة سنتحقق خلالها من مدى حرصك، وإلى أي حد يمكن الاعتماد عليك. تذكر هذا جيداً. أنت الآن تنخرط في جيش الصقوة، نخبة لديها نظام صارم يشبه نظام الكنيسة، أتمنى أن تفهم هذا. أو لنقل إنها تشبه كذلك الزواج؛ تسلمنا جسدك وروحك، وتعدنا بالوفاء في السراء والضراء حتى يفرقنا الموت. يكفيك هذا اليوم. اذهب لوداع زملائك في الشركة، فلن تراهم بعد اليوم. وبالطبع لن يعرفوا عن طبيعة عملك، من اليوم فصاعداً. ستودع العالم الذي عرفته

حتى اليوم، وستصبح لنا وحدنا، عضواً في أسرة رجال الشرطة.
يقف ميشنا وهو يغادر المبنى بجوار النافذة ينظر إلى بافليك، ثم
يتوقف على الرصيف المقابل يلتفت من حوله.

بعد ساعة تُقبل عاملات النظافة. سيل من عاملات النظافة يتدفق،
يملاً كل الغرف شيئاً فشيئاً. يجرون الأثاث إلى الطرقات، ينظفون
الأرض بخرقات مبللة، ثم من بعدها يجهزون خشباً قبل تنظيفه
بفرش سلكية، تجثو كل واحدة منهن وفي يدها فرشاة، ثم لاحقاً،
وبعد انتصاف الليل بكثير، يصقلنها بالشمع. في اليوم التالي يعدن
مجدداً، يسحبن الأثاث مرة أخرى بحرص، ويضعن هذه المرة مساند
طرية من تحته كي لا تشوه خشب الأرضية، وفي الوقت نفسه
يعدن ثقله. تمسك كل عاملة نظافة في كل غرفة خريطة توزيع
الأثاث، وترشد الأخرى عن أماكنه. يتلو هذا تنظيف النوافذ. في
النهاية يعلقن لوحات للزعماء: جوتوالد، لينين، ستالين، فليكس
دزيرشينسكي، مدير مركز تشيكا المهيب الشهير، المنوط به مقاومة
الثورة المضادة. صار قصر إدارة السكة الحديد الفخم مستعداً لأداء
رسالته الجديدة: هنا سيكون مركز إدارة أمن الدولة في مدينة برنو،
ومركز من مراكز التحقيقات. صار القلب النابض والعقل المدبر
بالتعاون مع مركز براغ في شارع بارتولومسكا، وروح بلدنا الجديد
الثائر.

جاء أحدهم لاحقاً للمتابعة، ولطم إحدى عاملات النظافة على

مؤخرتها. ثم سرعان ما عاد، واعتذر عن تلك اللطمة، وصفحها بدلاً من الصفحة اثنتين.

نادى على القبطان ميشنا رئيسه، الكولونيل صاد.

صاد لديه في مكتبه صورة رائعة لستالين أبعادها 146.2 x 108.5 بألوان زاهية، يقال إن اللوحة الأصلية رسمها الرسام الروسي الشهير إليا رابين. على الأقل هذا ما يردده الناس عن اللوحة. وقد أهداها ستالين بنفسه لصاد منذ خمس سنوات، إبان الحرب، أثناء هجرة الروس. هذه اللوحة تفرض عليه الآن التزامات بعينها، كما قال صاد بنفسه أكثر من مرة.

يدعو ميشنا للجلوس، يتركه جالسًا للحظات بينما يقف هو مستندًا بظهره إلى الحائط، وينظر إلى ميشنا في صمت. ثم يقول:

- نعم، أقيت نظرة على مستندات بافليك سوباك. شاب صغير خلع للتو سروال الصبا، وربما ما زال حليب أمه على ذقنه. ألم تخطئ هدفك؟ هل من المفترض أن يكون هو بافليك موروزوف، البطل الثوري الشهير، الشهيد السوفيتي الذي أبلغ بكل شجاعة عن والده الإقطاعي لسلطات تشيكا، ثم قتله الفلاحون الرجعيون لاحقًا؟
- أنا أضمنه بحياتي.
- حسنًا، أرجو ألا نلعب برأسك فيما بعد كرة القدم. حسنًا،

في الواقع أنا أثق فيك تمامًا. سمعت أيضًا أنك ماهر في معرفة طبائع البشر. تعرف على الفور هذه الطبائع. حسنًا، في النهاية أنت رفيق شارك في مناهضة النازية، ودخل معسكرات الاعتقال الألمانية، كما أنك محصن بأشد الطرق راديكالية. لو احتجت إلى أي شيء فبإي مفتوح لك في أي وقت.

يتوجه إلى الهاتف بعد أن ينصرف، يرفع السماعة ويمسك بها في يده للحظات، ثم يعيدها.

لننتقل إلى مكان وزمان آخرين. حانة صغيرة اسمها روزتلاتشيلي، محصورة بين شجرتي بلوط عظيمتين، على جانب غابة أسفل قلعة شيبيلبيرج. لا تتبع الحانة مدينة روزتلاتشيلي رغم أنها ما زالت تحمل اسمها. حجز ميشنا مكانًا له ولبافليك في هذه الحانة مساء اليوم. خضع بافليك للتدريب اللازم حتى هذا الوقت، وأتم بشكل منضبط حتى أكثر المهام وضاعة. عرف أن أمسية اليوم ستكون مصيرية، وأنها ستقرر في شكل حياته التالية. تحلى النادل بأقصى درجات الحفاظ على الخصوصية، فلا يظهر إلا إذا ميشنا رفع يده. يأتي بعدها حاملًا طعام العشاء الذي أعده مسبقًا، ومعه نبيذ جيد. التزم ميشنا أثناء العشاء بقواعد معسكرات الجيش. لا يتحدث أثناء الطعام، لكن شرع في الحديث بمجرد أن فرغا من الطعام ومسحا ذقنهما بالفوطة.

- من المعلوم جيدًا أننا لا نحارب أفرادًا، بل نحارب عشائر

وعائلات بأكملها غالبًا. لقد أخذنا من أسر أصحاب المصانع والإقطاعات كل مصانعهم وأملاكهم بأشد الأساليب راديكالية، وهؤلاء لا خوف منهم. الأكثر منهم خطورة اليوم هي أسر الطبقة الوسطى. أسر المثقفين المختبئة وراء ستار كي لا نراهم. خلف هذا الستار تتخمر الأفكار العدائية، وهذا الأمر يتطلب متابعة مستمرة. اخترت لك واحدة من تلك الأسر، أسرة كرامير. هذا الرجل يعمل أستاذًا للغة التشيكية في الجامعة، زوجته معلمة في مدرسة ثانوية. تبدو من الوهلة الأولى أسرة عادية تعمل في التدريس، لكن والد كرامير كان مؤرخًا شهيرًا قبل اندلاع الحرب، ومؤمنًا بأفكار مساريك، ولديهم مريدون في الخارج. شقيق كرامير كاهن في كنيسة. اخترنا لك هذه الأسرة لأننا نتابع حالة أسر مثلهم. تكمن خطورة عش الأفكار هذا في علاقاته. ليس المطلوب منك مراقبتهم الدائمة فحسب، بل تتعرف على كل من يتحرك في فلكهم، لكن حذار! لا يجب أن يروك. سيكون لديك كل ما يلزم من أجل أن تزرع حولهم شبكة من المخبرين ستديرها بنفسك. يجب الانتباه كذلك إلى أمورهم الأسرية، وإلى كل مشاكلهم. يقال إن كرامير زير نساء، ويلاحق النساء كما يلاحق ابن العرس الدجاج. هذا أمر قد يفيدنا يومًا. أما زوجته فمصابة بمرض العصاب، ودخلت مصحة نفسية ذات يوم. لا تكتب شيئًا الآن. سأعطيك الملف في وقت لاحق، حيث ستجد فيه

كل شيء تقريبًا. تسكن الأسرة في شارع كرشينوفا، بجوار المدرسة. سيعاونك هناك مدير المنزل. إنه غبي مجتهد، لكنه سيتابع كل الزيارات التي تستقبلها أسرة كرامير. ذات يوم ستنجح خطتنا، وسنجهض خططهم، ونقوم ببعض الخطوات المحسوبة التي ستقلب عالمهم رأسًا على عقب. بعدها ستساعدنا أي إفادة منك بشأنهم. الآن ستصبح مخبرًا سرّيًا، وجامع معلومات، وفي الوقت نفسه موظفًا اعتياديًا. ثم لاحقًا، وعندما يحين الوقت، سيكون لك دور هام، وأستطيع القول إنه دور عظيم، لكنني لن أتحدث فيه الآن.

واصل الجلوس في الحانة يشربان النبيذ، ولم يعاود ميشنا الحديث عن عائلة كرامير.

- سأتدبر لك شقة هنا في وسط المدينة. وسأتولى أمر والديك. فأنتم تعيشون في شقة صغيرة على أطراف المدينة، لكننا سنصلح الأمر. اخترنا بالفعل شقة لوالديك، ونحصل عليها بمجرد أن نطرد منها هؤلاء الطغاة الربويين. هذا البلد بات منذ أشهر بلد العمال الذين بنوه بأيديهم، وعلموا أبناءه، وحققوا حلمًا طالما حلمنا به، والآن حان الوقت كي نثبت أننا قادرين على صونه، لكن كما سبق وقلت، ستكون عندك شقة خدمة مستقلة كي لا يتدخل أبواك في أمر نريد له أن يبقى في طي الكتمان.

أحضر النادل زجاجة نبيذ أحمر ماركة كابيرنت ساوفيجنون، ومسح الطاولة بفوطة في يده، وانتظر أن يعطيه ميشنا إذناً بالانصراف. طقطقت الشموع بمهابة بين الحين والآخر، بينما توقفت الأمطار في الخارج رغم سحابة فوق المدينة ظللت النجوم والقمر.

قال ميشنا:

- أعتقد أن علينا الانصراف قبل أن يعاود المطر.

لم يبق على الطاولة سوى زجاجة نبيذ لم تفرغ، في الخارج تنتظرهما شوارع برنو التي غسلتها الأمطار، وصار الهواء أمام البار الصغير منعشاً رغم دخان غليون ميشنا.

- أنا لا أترك سيارتي أبداً بالقرب من المكان الذي أنا فيه، إنها قاعدة المؤامرة التي أحافظ عليها.

بافليك ليس مجبراً على أن يلتزم بقاعدة كهذه، فليس عنده سيارة بعد. وقفنا لحظات بين شجرتي البلوط ينظران إلى المدينة، إلى أضوائها وما ظهر منها وسط السحب السوداء، ثم هبطا من عند قلعة شيبيليرج، وانعطفا مرتين. أوصل مشينا الشاب بافليك إلى ضواحي المدينة، حيث يعيش مع والديه في بيت قذر في حي شيداناتس.

- أنت الآن رجلنا. لا تنس: في السراء والضراء إلى أن يفرقنا الموت.

ثم فتح باب عربته الفارهة ليذهب بافليك إلى بيته الحقيقير.

زيارات الزعيم لنا هنا كثيرة، بينما أنا كثيرًا ما أزور الكرملين. أنا أفضل ما أنتجه قسم الفيزيولوجيا في معهد الطب التجريبي الذي أسسه إيفان بافلوف. أحبني الزعيم، وقال لي بكل صراحة غير معهودة فيه: أنت صديقي الوحيد، ولا أعرف صديقًا غيرك. رائع أن أكون الصديق الوحيد للزعيم الذي تحمل اسمه الشوارع، والميادين، وحتى الجبال الشاهقة، وتزين صوره بيوت كل التقدميين في أنحاء العالم، أنا الثعلبة الحمراء.

لقد قارن الزعيم هذه المقولة بمقولة الأديب السوفيتي التقدمي ماكسيم جوركي الذي قال يومًا إن الأديب الأصولي ليونيد أندرييف كان صديقه الحق الوحيد. العالم ممتلئ بالتناقضات، وهذه هي جدلية الماركسية. أنا حمراء بالكامل، وهو يسمى هذا لون الثورة الحمراء. يقول كلما أراد أن يغضبني كثيرًا إنه لو اكتشف أنني لم أعد بلا فائدة فسوف يعلقني كعلم أحمر على صارية الكرملين.

لا بد أن أعترف كذلك أنني تخلصت بصعوبة بالغة من طبيعتي كثعلبة لأنهم من تولى هذا التحول. أفف الآن بين عالمين، واحد منهم في الواقع ليس عالميًا. وبدلاً من التدرّب على الإمساك بالأرانب البرية، وتنظيف البراغيث من جسدي أقوم على تشغيل نظام الإشارة الثاني في رأسي، أعبث بكلمات، وكلمات، وكلمات،

وضاعت طفولتي في هذا الأمر.

لكنني لم أنس أبداً أول مرة رأيت فيها الكرملين. حملني الزعيم تحت سترته العسكرية، ولم يظهر مني غير رأسي. وعندما مررنا بمدفع ضخم يطلقون عليه هناك اسم كاربوشكا سمح لي بالنظر في مؤخرته البرونزية، أقصد من فوهته، وسمعت هناك دوي الفخر الروسي اللامتناهي. رأيت في مكتب الزعيم تمثلاً صغيراً من القصدير، نسخة مصغرة من تمثال بيتر الأكبر الذي انتصب فوق جبل سان بيتسبرج.

أجلس بجوار التمثال الثقيل بينما الزعيم يوقع على أوراق، مثلما يفعل كل يوم، أحياناً يرفع رأسه، ينظر إلى، ويطلب نصيحتي. فأنصحه على سبيل المثال قائلة: الملف من 258 حتى 342 لا يستحق الإعدام شتقاً ولا رمياً بالرصاص. يهز الزعيم رأسه، وبجرة قلم قوية (يكاد الحبر يتطاير منه على ذيلي الثعلبي) يشطب على الملف الذي ذكرته. ويمنحه عفوًا. لا يفعلها إلا لحبه لي، ولا مبرر آخر لهذا الإجراء.

الزعيم لديه خطط كبيرة فيما يخصني. صحيح أنني لا أعرف ما هي هذه الخطط، وربما هو بالمثل، لكنه يعدني لهذه الخطط. لا يخطط بالتأكيد أن يجعلني دمية حمراء في الكرملين، ويتأسف من أنه مضطر إلى إخضاعني لتدريب صارم. غالب الظن أنني سأكون جاسوسة في معسكر الأعداء؛ لذلك لا بد من تلقيني الأفكار البلشفية كي أكون آمنة من أن يفترسني العالم الرأسمالي. لا بد

أن أتلقى لقاهاً ضد عدوى الرأسمالية. هذا المكتب الضخم في الكرمليين الذي استلقت عليه حتى الآن بجوار تمثال بيتر الأكبر هو ساحة أصارع فيها، تحت أنظار الزعيم، حيوانات أحضروها لهذا الغرض من سيبيريا. ولأن الزعيم يتمنى لي دائماً ما هو أفضل، استحقر حيوانات حديقة الحيوان والسيرك، ورأى أنه لا بد أن أكون من حيوانات غير مزيفة، قادمة سهول التاندر، والتايحا، ومن وادي نهر ينسي. أصارع على مكتبه الضخم قطط سيبيريا، وذئبها، وقيوطها، وفهودها، وحيوانات الخز وولفرين، والغرير، وحتى الثعالب القطبية. أهزمهم جميعاً بكل بساطة، لكنني أعتقد أن السبب في هذا يعود إلى أنني اعتدت أجواء الكرمليين، بينما حيوانات سيبيريا عليها أن تحارب مع بيئة غريبة عنها تماماً وهي تنازلني. رأى الزعيم أنني نبيلة إلى أبعد الحدود لأنني أعفو عن أي حيوان أهزمه: كم مرة أخبرتك أننا إن أردنا أن نصنع عالماً أكثر عدلاً فلا بد أن نكون حازمين قدر المستطاع. عندما تقطعين غابة فلا بد أن تتطير منها كسرات، وهذه الكسرات قد تكون أحياناً كبيرة بحجم صاري سفينة.

أوفقك الرأي، أيها الزعيم، لكنني لا أعرف لم لا أكون نبيلة مع حيوانات سيبيريا التي لا علاقة لها بأي إمبريالية؟

يجيب الزعيم: أنتِ دائماً تقنعيني برأيك. ثم يطلب مني أن أشعل غليونه.

من المتوقع أن أجيد كذلك لغات أجنبية بصفتي عميلة المستقبل؛

لذلك أتعلم أهم اللغات الإمبريالية وهي الإنجليزية. حرص الزعيم على أن أتمتع بموهبة تعلم اللغات الأجنبية فوضع لي طلبة أكاديمية بافلوف نظام إشارات ذكياً جعلني أتحدث الإنجليزية بطلاقة، ومعها الألمانية والفرنسية، اللغات التقليدية التي كانوا يتحدثونها في بلاط القيصر يوماً ما.

اختار لي الزعيم أفضل أساتذة جامعة لومونوسوف. كانوا جميعاً في دهشة كبيرة عندما التقوا لأول مرة بتلميذة مشعرة ذات موهبة كبيرة في تعلم اللغات. المثير في الأمر أنهم لم يبقوا على قيد الحياة بعد انتهاء دورة اللغة، لكنهم لم يعرفوا بمصيرهم إلا في نهاية الدورة، بعد آخر حصة دراسية. لست سعيدة بهذا الأمر: فأعضاء الجامعات الروسية هذه طيبون للغاية، لكنني أنفهم الأمر. علمهم بوجودي يساوي حياتهم.

أفهم كذلك أن الزعيم تخلص من كل موظفي معهد إيفان بافلوف. خاف من أن يظهر حيوان أكثر ذكاء مني. قلبه ليس كبيراً بدرجة كافية لتقبل حيوانات كثيرة ذكية؛ لذلك عين في المعهد كفاءات علمية هزيلة، محدودة الذكاء، فتراجع المعهد خطوات إلى الخلف، وضح من جديد بنباح كلاب يسيل لعابها، لعاب غزير يسيل حتى شارع نيفسكي بروسبكت.

لما لا يقبل هذا العرض؟ رآه بافليك على الفور عرضاً طيباً. صار عضواً في جيش الصفوة، وتحرك في أجواء سرية مريحة، وكأنه عين خاصة طالما قرأ عنها فقط في المجلات. تقاضى

راتبًا لم يحلم به أي خراط، وفجأة صار في أعلى درجات السلم الاجتماعي، هناك، كما أكد له ميشنا، سينال احترام الجميع كلما جاء ذكره، ومنهم الرئيس شخصيًا على سبيل المثال، أو رئيس الوزراء؛ لأن الحكومة دون أمن لا قيمة لها، والأمن يحمي الحكومة، ليس فقط من عدو خارجي، بل في أغلب الأحيان من عدو داخلي. وهذا العدو الداخلي لا يعرفه إلا رجال الأمن، وحدهم دون غيرهم. حتى الرئيس نفسه لا يمكن أن يشعر بالأمن إلا عندما نعطيه ختمًا بهذا الأمن. نحن إذًا لسنا جنود الثورة فحسب، بل كذلك ضامنوها وورثتها. هذا ما ملأ به ميشنا رأس بافليك على أنه عقيدة جيش النخبة الذي ضم بافليك إلى صفوفه بشكل لا رجعة فيه.

ظل يقيم مع والديه في تلك الشقة الجديدة الأنيقة في وسط المدينة، في شارع تشيكا بمركز بورصة برنيانو، وكانت قبل أمس مسكنًا لعائلة برجوازية اتهمها أمن الدولة بتواطؤ أثناء الاحتلال النازي، فغادرت الشقة مباشرة إلى السجن. استولى والدا بافليك على كل ما في الشقة من أثاث، وحتى الأغذية في غرفة النوم. استيلاء أخرق، بقيت ماكينة حلاقة أمريكية بجوار مستحضرات التجميل، عليها بقايا شعر شارب برجوازي، وفي غرفة الأطفال كومود وردي عليه آثار غائط طفلهما البرجوازي اللعين. لم يعجب هذا الموقف بافليك: أن يدخل عنوة إلى عالم أسرة أخرى، تفاصيلها الخاصة حاضرة في كل مكان، لكنه في الوقت نفسه لم يشك، ولم يقدر على أن يشك بأن عالم اليوم لا بد أن يتخلص بأسرع ما يمكن من عالم الأمس. رغم هذا أسعده أنه

لن يبقى طويلاً في هذه الشقة: سيحصل على شقة خاصة، كما وعده ميشنا.

تواصل التدريب، وكانت تدريبات اللياقة البدنية جزءاً منه. لم ينل أي من الرياضيين المعروفين مثل هذا التدريب. عاد إلى تخته المدرسة كما يقولون. كان عليه أن يجد، ويجتهد ويحفظ كل دروس اللغة الروسية عن ظهر قلب. تحولت واحدة من حجرات مركز أمن الدولة إلى قاعة درس لتعليم اللغات، وملتقى لكل من يستعدون للقاء زملائهم من مركز الشرطة الروسي -لوبيانكا- الذين سينقلون لهم خبراتهم. كان مدرس اللغة الروسية رجلاً روسياً عجوزاً، يعلمهم لغة بوشكين وليرمنتوف، ويسينين، وماياكوفسكي، وخليينيكوف، وأسايف. علمهم صوتيات اللغة وقواعدها، علمهم المحادثة، وحب اللغة، كل حصة ينهيها بمقطع من لآلئ الشعر الروسي، على سبيل مطلع قصيدة بوشكين إلى البحر: **تلاشى.. نعي الحرية. ترك العالم تاجك. صاخباً كنت أيها البحر.** شعر معها بافليك بقوة الشعر الروسي الساحرة تهز كيانه، لكنه لم يستفد كثيراً من هذا المدرس؛ لأن رؤساءه رأوا أن إيقاع المحاضرات بطيء، والفائدة ضئيلة. فضلاً عن اكتشاف تهاون في تقصي مسيرة هذا المدرس. فهو من أسرة روسية هاجرت إلى براغ قبل ثورة أكتوبر. وعندما جمعت منظمة الأمن السوفييتي سميرش كل المهاجرين في تشيكوسلوفاكيا بعد التحرير فاتهم أمر هذه الأسرة. وحان الوقت لإصلاح الأمر.

جاءهم مدرس جديد، لم تكن الروسية لغته الأم، لكنه أجاد الروسية عندما التحق في نهاية الحرب بوحدة المظليين الروسية. شعر بافليك بمدى الخسارة؛ فلغته الروسية السوقية مجرد جلبة عربية يد مقارنة بالروسية التي عرفها وسمعتها من ذلك العجوز، لكنه سيلتقي مجددًا بمدرسه المفضل، العجوز الذي جعله يحب لغة بوشكين إلى الأبد.

يبدأ اليوم بالتدريب في صالة التدريبات. تدربوا بكل صرامة، يرافقهم شعار القائد سوفوروف عاليًا فوق الحلبة حيث يتصارع المتدربون: كثير من العرق أثناء التدريب قليل من الدم في أرض المعركة، لكن كثيرًا ما حدث أن يذهب المتدرب بعد لقاء الحلبة إلى عيادة الطبيب مباشرة. يغادرون صالة الرياضة في جماعة عبر دهليز طويل، أبواب تراصت على اليمين وعلى اليسار. ذات يوم تأخر بافليك في صالة التدريب مع مدربه الذي علمه الطريقة السليمة للتنفس أثناء التدريب، ثم عاد وحده في ذلك الدهليز. رأى وهو في طريقه بابًا مفتوحًا، ومن خلفه مدرس اللغة الروسية العجوز. رآه معلقًا من قدميه على ارتفاع ركبة بافليك تقريبًا، ويتساقط الدم من فمه. في الواقع لم يعد يتساقط؛ فقد مات ميخائيل أكسكوف، لكن أحدهم هز جثته من الخلف لحظة مرور بافليك، فتوجهت عينا المدرس الزائعتان ناحية بافليك مباشرة....

صدمة كبيرة جمدت أوصاله، ثم هرع إلى أقرب حمام، وهناك

ظل يتقيأ أكثر من مرة.

- لم يكن الأمر صدمة على الإطلاق، أيها الرفيق القبطان. لقد أمرتهم أن يفتحوا الباب لتظهر له الجثة وقت مروره من هناك. أمرت المدرب أن يؤخره لأي سبب ليظهر في الدهليز بمفرده. كان في حاجة إلى مثل هذه الصدمة. لا يمكن أن تبقى الأمور كما كانت. أنت تجعل منه طفلاً مدلاً، لكننا نحتاجه سفايحاً بلا رحمة، كلما تطلب الأمر. لا يتعارض هذا مع أهدافك في جعله يتعقب أعضاء الأسر المعادية، لكنني سأجعله يشارك في جلسات الاستجواب، لا بد أن يكون فيها واحد منا، وليس دمية من حلوى.

قال ميشنا:

- أمر آخر، وأرجو المعذرة، أيها الرفيق الكولونيل.

- تفضل أيها الرفيق!

- أخشى من أن شيئاً ما فاتنا!

- كلي آذان صاغية.

- هل من حقنا أن نقتل المدرس الروسي، حتى لو عملنا عنه شيئاً؟

- أرى أنك تهتم بأمور لا قيمة لها. لقد أرسلنا بيانات عنه إلى السفارة السوفيتية التي بعثت محققاً خاصاً تولى أمره.

كسر كل عظامه، على سبيل المثال، وبعد الاستجواب قضى عليه بالموت معلقاً من قدميه، ورأسه مدلى ناحية الأرض. كنت هناك، ورأيتَهُ وهو يعمل في لوبيانكا. لدينا مهام كثيرة لا تنتهي. هل عندك شيء آخر أيها الرفيق؟

- أنا على قناعة بأنه كان ينبغي أن يتعلم أيضاً الألمانية والإنجليزية. أعرف من..... من المدرس الروسي أن بافليك موهوب في تعلم اللغات الأجنبية. أجاد الروسية بمنتهى السهولة. أفكر في أن نرسله إلى الغرب مع الوقت، يلاحق المهاجرين التشيك.

- هذه فكرة جيدة، موافقك طالما تعتقد أنه جدير بها. حسناً، بخصوص دراسة الألمانية والإنجليزية، لدينا في محبس شارع سيل أستاذ من كلية الآداب. سيذهب إليه رجلك هذا، بافليك، في المحبس لتعلم اللغات المطلوبة. لا بد أن أعترف أنني معجب تماماً بهذا الأمر.

- بافليك نموذج لإنسان فائق الذكاء، ولد في أسرة معدومة تماماً.

- لقد قلت لك من قبل إنني أثق تماماً فيما تفعله مع هذه الحالة، لكن لا بد أن يجتاز الأمور الأساسية مثل باقي الأفراد هنا. لسنا دار حضانة، بل أعضاء جيش البروليتاريا الجبار. لن آخذه منك. خذ بيده إلى حيث تريد، لكن اعلم أننا نعيش في عصر لا يحدد شكل اليوم فحسب، بل وشكل

الغد وبعد الغد.

- أعرف هذا جيدًا، أيها الرفيق. وأؤكد لك أن رجلي هذا، كما تقول، بافليك موروزوف سيصبح خنجرًا في حلق كل أعداء الثورة.

انفجر الكولونيل صاد في الضحك:

- حسنًا، انصرف، وأصقل خنجرك!

خاطبها في مكتب البريد وهي تتلقى الطرود البريدية. كانت بالتأكيد أكبر منه سنًا، لكنها حسناء، جميلة الطلعة كعادتها، وكما يراها الآن في مكتب البريد.

- هل يمكن أن أرسل من عندكم كذلك طردًا وزنه أكثر من عشرة كيلوجرامات؟

- غالبًا نعم.

- لكنه طرد خاص جدًا.

- أها، حسنًا، فلتحضره وسنرى.

- أفضل أن تلقي عليه نظرة في مقهى بلفيو.

- أها.

- غدًا في الساعة الخامسة مساءً.

- لا أعرف، انتظر لحظة! هذا ممكن.

وجاءت بالفعل.

- أنت إذا ضابط مرور، تقف في التقاطعات تحرك ذراعيك؟

- كلا، أنا ضابط مرور يستدعونه في حالات حوادث السير.
أيضاً أفحص رخص القيادة، وأستطيع إيقاف أي سيارة تتجاوز
السرعة المقررة، أو تخالف إشارات المرور.

- ومتى وأين ستبرني طرد البريد الذي تريد أن ترسله؟

لم يحدث الأمر بالسرعة المتوقعة. دعاها بعد اللقاء بيومين إلى
شقتة التي وعده بها ميشنا، وأخيراً تسلمها: استوديو صغير في
شارع كوبليشنا بوسط المدينة. لا أثر فيها لحسن الحظ لمستأجرين
سابقين. كل أثاثها اشتراه بنفسه من متجر الأثاث، بما فيه السرير
الذي ينام عليه.

قالت الفتاة عندما طلب منها أن تفتح فمها عن آخره:

- لم هذه العجلة، أيها الشاب، ماذا تفعل؟ مهلاً... ما هذا... هذا
لا يجوز، إنه تصرف أحمق.

- بل يجوز، فأنا جندي في جيش البروليتاريا الجبار، وهذا هو
سلاحي. وسأعطيك إياه!

ثم دس عضوه في فمها حتى حلقها قبل أن تتذمر.

انتابه الرعب بعد انصرافها. قدم لها نفسه على أنه ضابط

في شرطة المرور، وقد أصاب، لكنه في حالة النشوة قدم لها فرجه على أنه سلاح جيش البروليتاريا العظيم، وهو تصرف لن يقبل به ميشنا. التقى بها عدة مرات فيما بعد كي يتأكد من أن عبارة جندي جيش البروليتاريا العظيم لم تعلق بذهنها، ثم تركها وشأنها. تعاضم في نفسه شعوره بالذنب من أنه تحدث معها، حتى جمال لبوة موظفة مكتب البريد الفاتن لم يقدر على محو هذا الشعور.

قال لي الزعيم ذات يوم:

- أظن أن عليك أن تجري الحياة بنفسك. سأطلقك الآن من أحضاني، وأدفع بك إلى أحضان الحرية، وعندها تقررين بنفسك إن أردت العودة مجددًا.
- سأعود بكل تأكيد.
- لا تقولي هذا قبل أن تجري.
- ثم بسط أمامي خريطة سيبيريا، ووضع إصبعه على مدينة كبيرة تقع عند نهر ينسي، مدينة كراسنويارسك، وقال:
- سيذهبون بك إلى هنا عبر خطة سكك حديد سيبيريا.
- انطلقنا من محطة ياروسلافسكي في موسكو، وأماننا طريق سفر لخمسة أو ستة أيام.

فتح الزعيم نافذة الليموزين الصغيرة، وأرسل لي منها قبلة في الهواء، وهو تصرف ليس ضمن قاموس إيماءاته المعتادة. اعتاد أن يضع يده على الرقبة، ويمرر حد كفه عليها، وهو عادة تصرف لا ينتبه البعض إليه.

أسافر في عربة واحدة مع كل حيوانات سيبيريا الذين نزلتهم على منضدة الكرملين الضخمة، مع ذئب البراري، والفهد، وابن عرس، والغرير، والثعلب القطبي، وأولفيرن. إنهم عائدون إلى موطنهم في سيبيريا الذي أخذوا منه عنوة كي يساعدوا في تدريبي، لكنني ذاهبة إلى هناك في رحلة تجريبية. أكثر ما أزعجني هو الثعلب القطبي، كما هي الحال دائماً مع الأقارب. توطدت علاقتي أكثر بأولفيرن. وكانت المباراة معه على منضدة الكرملين من أصعب المباريات، لكنه الحيوان الوحيد الذي ظننت على حق أنه قادر على مجابھتي، وطرحي على حافة المنضدة، واجتزاز ذيلي، ولفه حول رقبتة مثل شال يدفئه في شتاء سيبيريا القارس. لكن قرر أولفيرن على ما يبدو التظاهر بالاستسلام، والهزيمة أمامي. أعرف وهو كذلك يعرف أنني أعرف أنه يتظاهر، فربطنا ببعضنا ما يشبه المؤامرة.

رافقنا إيفان ياكوفلافيتش إلى كراسنويارسك بسبب صعوبة التواصل مع موظفي السكة الحديد رغم معرفتي بلغتهم البشرية. إنه من النوع الذي يشير إليهم الزعيم بحركتين على رقبتة كإشارة إلى مصيرهم، ثم من بعدها يمنحهم عفواً. قام على رعايتنا حتى

وصلنا إلى كراسنويارسك، ثم شرح لي بعدها كيف أعود بمفردي في عربة البضائع بقطار سيبيريا السريع، ومن بعدها يستطيع تنفيذ ما جاء في خطاب الزعيم بأنه سيصبح مواطناً حراً، إنساناً حراً.

وفرت تلك الرحلة الطويلة فرصة كي أتحدث مع حيوانات سيبيريا، التي لم أتواصل معها إلا على منضدة الكرملين الضخمة من خلال لكلمات، وركلات موفقة، وضربات دقيقة على خلف الأذن، ومحاولات خنق، ومسكات رأس مزدوجة، لا بد أن أذكر هنا أنني أعرف لغة الحيوانات العامة، فضلاً عن الروسية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية. لغة قائمة على أصوات في موجات شديدة الانخفاض وأخرى شديدة الارتفاع فلا يسمعا البشر. لا تسمع الناس منها إلا الأصوات المتناثرة التي تموج على سطح اللسان مثل أوراق على سطح النهر أيام الخريف. تمكنت، إذاً، على مسمع من إيفان ياكوفلافيتش في إلقاء بعض النوادر الساخرة عن البشر، نوادر قد يثمنها الزعيم (فعنده تحفظات من سلوك البشر)، لكن أي عضو آخر من جنسه قد يصلها عليها.

قررت أن أغتنم تلك الرحلة الطويلة في إثراء لغة الحيوانات بدلاً من أن أشارك حيوانات سيبيريا تجاربي الساخرة. ترجمت خطاب الزعيم أثناء اجتماع اللجنة المركزية للاتحاد إلى لغة الحيوانات بينما المدن تمرق خلف نوافذ العربة، مدن صغيرة، وقرى، ودير فني، وهو اسم أطلقه القائد على البلد الخصيب

الواسع، الذي تنتشر فيه الحقول، والغابات والأنهار، فسنتح للحيوانات الموجودة معي فرص لتجربة لغة الخطاب. لا ألومهم على أنهم استسلموا لنوم عميق استعدادًا لطقس سيبيريا القاسي الذي يعودون إليه.

ودعنا إيفان ياكوفلافيتش في محطة كراسنويارسك، وانطلق في طريق الرجال الأحرار.

لو أردت أن أصف الآن مدينة كراسنويارسك فسوف أحتاج إلى ردة فعل حيوانات سيبيريا التي هرعت إلى المركز الصناعي المخصص للأرانب الوحشية. من عرف منها السباحة، ولم يخف من تيارات الماء الماكرة، قفز في نهر ينسي وكأنه وسيلة نقل سريعة ستحملة إلى التايجا.

لكنني انطلقت على الطريق مع وولفرين، لكي يكون واضحًا هذه المرة أن وولفرين هذا يخصني أنا دون غيري (فهو ملتصق بي أكثر من أي حيوان آخر) أعطيته اسمًا لم يحمله أي وولفرين قبله: جورجي فالانتينوفيتش بلاخانوف. هو حيوان بحجم دب صغير، رغم هذا يستدعي احترام كثير من الحيوانات الأكبر منه، لهذا شعرت أنه يليق بأن يرافقتني إلى برية سيبيريا.

سألني:

- أتريدين فعلاً أن تذهبي إلى هناك؟
- نعم، أريد بقوة، أظن أنني تركت الزعيم المحبوب، وقضيت

أسبوعًا في قطار نتن كي أتراجع الآن؟ أريد أن أعرف معنى الحرية وما هي حدودها.

- معنى الحرية؟ لست في حاجة إلى كل هذا السفر لتعرفيه.

ثم أشار وولفرين إلى سور عالٍ على تخوم المدينة، سور يطوقه سلك شائك، وتشرف عليه أبراج حراسة في أركانه. يسكن هناك الآن كل من لم يفهم سريعًا أن الحرية كلمة جوفاء.

أدرت رأسي لأنني عرفت على الفور أن ما أسمعه مجرد نموذج كاذب لدعاية مغرضة تحارب كل ما منح الزعيم هذا الأرض من رخاء.

ما إن غادرنا المدينة وانطلقنا بمحاذاة نهر ينسي اعتراني شعور بأن التايجا صارت قاب قوسين أو أدنى، وأنها قادمة إلينا، لكن -وكما هي الحال في شرع التطلعات- سرعان ما تأكدت من أنها -على العكس- تبتعد عنا في كل خطوة. مشينا طويلًا في طرق وعرة، تخطينا إطارات سيارات منفوخة، تعثرت أقدامنا بمختلف أنواع علب الصفيح ومخلفات الحديد. حانت ساعة الظهيرة، على ما اعتقد، عندما وطأت أقدامنا أرض التايجا.

تبدأ التايجا بسور جميل من أشجار الأرزية، وعلى طرفه كومة من غائط الدببة أقل منه جمالًا. تخيلت فورًا قريب وولفرين السمين الموبر جالسًا هناك، لا يلوي على شيء، ينظر باحتقار إلى عش نمل يتحرك في مدينة كراسنويارسك، لكن وولفرين أيقظني

من أوهامي، ونبهني إلى أنني لو صرفت انتباهي إلى تحليل كومة غائط الدببة فسوف أعرف أن مخلفات مدينة كراسنويارسك هي مصدر طعامه.

كنا في شهر أغسطس حيث يتعظم صيف سيبيريا، عرفت هذا دون مساعدة من وولفرين، استنشقت كل هذه الأجواء بكل حواسي، وتهلل فرو جسدي فرحًا بما أراه. أنفاس رائعة من هواء عليل، حتى شعرت بأني قادرة على السير في هذا المعبد الصنوبري إلى الأبد، لكنني أدركت بعد ثلاث ساعات أنني أخطأت، ربما لأن التيجا ليست مجرد أشجار صنوبر هزيلة، أو سجادة من شجيرات الصنوبر وغب الأحرار، والتوت، لكنها كذلك مستنقعات، وبرك، وأغدار، لكن يجدر القول إن هنا وسيلة مواصلات طمأنتنا بأننا لن نضطر إلى نلمس بأرجلنا هذه الأرض الوعرة.

لا يمكن القول بأن حيوانات الأيل تحمست لاستقبالنا. بدت على وجوهها أمارات العداوة، أو ربما ليست عداوة، وولفرين الذي استطاع -على غير العادة- أن يصعد التل لم يلق منهم الاهتمام اللازم. كانوا جماعة، قطيعًا لا يخشى أي شيء، أو هكذا شعر في قرار نفسه على الأقل، ولا حتى الدببة الضخمة.

تواصلت معهم بلغة الحيوانات المعروفة. حتى هنا في سيبيريا، وكما هي الحال دائمًا، تنطبق قاعدة: لا شيء دون مقابل، ولأنني كنت على استعداد أن أفعل أي شيء نظير الوعد الذي قطعته على نفسي، فقد حكيت لهم أثناء الرحلة حكايات الأف ليلة وليلة، كما

عرفتها من طبعة ماركسية منقحة.

ركب كل منا على ظهر حيوان أيل، وجلست أنا في عكس طريق السير، على عكس وولفرين، واستندت إلى قرون الأيل الجوفاء.

مشينا في تلك الأرض الموحلة التي احتلت جزءاً كبيراً من التايجا. تكيفت المستنقعات مع أرجل الأيل فصارت وكأنها تمشي على سجادة حمراء. أشعلت مصباح علاء الدين السحري فوق تلك المستنقعات، فسيطر ضوءه الأسطوري على أشجار الصنوبر من حولنا، وعلى كل قطيع الأيل الذي رافقنا ونحن على ظهور أقرانه، والتصق بنا كي لا يفوت أحد كلمة واحدة من حكايات شهرزاد التي أحكيها.

تلاحقت الأيام سريعاً، لم يتخلف بافليك خلالها عن جلسة استجواب واحد ممن ظهروا في مركز مكافحة المتآمرين على الدولة. عقد الجزء الأهم من جلسة الاستجواب في السجن، كما يحدث دائماً، ثم هنا، في مركز تحقيقات أمن الدولة. استجوبوه في آخر اختبار إن كان مستعداً للوقوف أمام المحكمة؛ بدا الرجل وديعاً مثل الحمل، ثم سرعان ما انسابت من فمه كلمات الاعتراف، لكن بقيت عيناه ساكنتين، وكأنه ينظر إلى بوابة يعبرون منها إلى مدينة التعذيب، إلى ألم لا ينتهي: إلى كل الداخلين، اطرحوا كل آمالكم...

للمرة الثانية يلتقي بافليك بالأعين الهامدة، لكنها هذه المرة أسوأ من عيني مدرس اللغة الروسية المقتول لأنها ماتت قبل أن تموت.

سأل القبطان ميشنا:

- هل لا بد أن أحضر هذا الاستجواب؟

- توقعت سؤالك هذا. والإجابة واحدة: مهمتنا ليست نزهة في حديقة ورود. هناك حالات أسوأ من هذه، ليس عليك فقط أن تشاهدها، ولا يمكن أن تتراجع عما بدأت: بالتأكيد لا تحب أن ترى إلى أين سيأخذك طريق العودة.

تردد بافليك على سجن تسايل للقاء الأستاذ الجامعي في دروس اللغة الألمانية والفرنسية. ورغم أنه سجن، المرحاض فيه عبارة عن دلو مغطى بورق كرتون، شعر بافليك فيه براحة أكثر من مشاركته في جلسات غرفة الاستجواب في الطابق الثاني بقصر أمن الدولة. كان أستاذه من أفضل المدرسين، وبفضل تدريسه اللغات لبافليك استطاع أن يرى أولاده وزوجته بانتظام. انتابت البروفيسور مخاوف قبل أن يلقاه من أنه سيكون مجرد عامل غبي برأس محشو بالتعاليم الماركسية اللينينية، لكن المفاجأة أنه شاب ذكي له شخصيته. اتضح له كذلك أنه يتربص لقاءه في الدرس بكل سعادة. لا يجب أن نبالغ، فكلمة سعادة مبالغ فيها إلى حد كبير: ببساطة أسعده أن تُبدد دروس اللغة الألمانية والفرنسية المنتظمة وحشة السجن، ومع طالب مجتهد،

وأنة يتلقى مكافأة رائعة مقابل هذا في شكل زيارات متكررة من زوجته، وهو ما لا يحلم به باقي سجناء تسایل.

لا يجب أن نهمل الجزء الأكثر أهمية في مهمة بافليك، ألا وهي مراقبة الأسرة المشكوك في أمرها، وتحديدًا أسرة أستاذ جامعي آخر، نعم، إنه البروفيسور أرنوشت كرامير. لم يقرروا إلقاء القبض عليه بعد، ولم يرغبوا في إظهار أنهم أوقعوا به في مصيدتهم لأنهم توقعوا أن له علاقات مهمة. هكذا سارت الأمور. البعض قابع في السجن، بينما بقي الآخرون كطعم إلى حين، لكن القبطان ميشنا كان لديه هدف آخر من البروفيسور كرامير (نعم، هدف خصوصي، رجال أمن الدولة لم يكن لديهم أبدًا أي هدف استثنائي، بل دائمًا أهداف خاصة، لا يدري أحد السبب)، وهو ما ستعرفونه قريبًا، ما لم ينفد صبركم.

لم يخطئ ميشنا: بافليك شخص موهوب، ليس المقصود هنا فقط الموهبة في تعلم اللغات. غيابه عن أعمال أمن الدولة الاعتيادي خسارة كبيرة. هذا الأمر انتبه إليه لاحقًا الكولونيل صاد. رأى رجال أمن الدول في بافليك صورة شابة لمتواطئ بالفطرة، بارع في تدير المكائد والدسائس، يحملها في جيناته، ورثها ربما عن أحد سلفه الذي اشتغل في الدسائس في بلاط أحدهم قديمًا، ولو ظهر في إحدى روايات ستندال لدهشنا من حجم الأعمال الشيطانية الخطيرة التي سيفعلها في الرواية. بسط إذًا شبكة من المخبرين حول البروفيسور كرامير في الكلية التي

يعمل بها، اشترى بعضهم، وابتز البعض الآخر. رسم فخاً للإيقاع بعلاقاته المهمة، في الوقت نفسه حافظ بافليك على تعليمات ميشنا وهي: ممنوع أن يراه كرامير، لا بد أن يبقى متخفياً خلف شبكة المخبرين. مر كل بريد للبروفيسور في يدي بافليك قبل أن يوضع في صندوق بريده. ورغم أن مكتب البريد الرئيس في شارع البوسطة يبعد كثيراً عن شارع ديميتروفوفا حيث اقتنص تلك اللبوة، موظفة البريد، عرف جيداً أن بين موظفي البريد مراسلات بريدية سرية، تحمل من وقت لآخر معلومات عنه قادمة من شارع البوسطة إلى شارع ديميتروفوفا، والعكس. فوجدت تلك اللبوة نفسها فجأة في مصنع للملابس دون أن تدري من الذي يقف وراء هذا النقل. فرك القبطان ميشنا يديه، وأثنى على حدسه الذي جعله يختار هذا الشاب المجتهد الذي تنتظره مهام عظيمة في المستقبل.

انفتحت كوة الملاحظة في الباب الحديدي، بينما يشرح البروفيسور ظايل لبافليك الأفعال الألمانية الشاذة، وأراد شخص ما أن يدفع طبقاً معدنياً إلى الزنزانة به حساء للمساجين. حان وقت غداء السجناء. أمرهم بافليك أن يفتحوا الباب، وأن يأخذوا معهم طبق الحساء على الفور، ثم أمر الحارس بأن يأخذ دلو المرحاض، وأن يرافق البروفيسور إلى مرحاض العاملين كلما أراد.

سأل البروفيسور ظايل:

- أحب شرائح اللحم، أم الجلاش؟ أو ربما أنك نباتي، وتفضل فطائر البرقوق؟

انتبه إلى الصاعقة التي حلت بالبروفيسور جعلته عاجزاً عن الكلام. أمر الرجل الذي أحضر الحساء ثم عاد به أن يذهب إلى فندق فيدرا المجاور.

- أحضر من هناك طبقي طعام، واحدًا بشرائح اللحم المطهية، وآخر بفطائر البرقوق، وماذا أيضًا، آها، طبق بودينج جيداً، وفاكهة مطبوخة، كلا، اشطب هذا الكومبوت، أحضر فاكهة طازجة، وليتها بطيخ، وبالطبع بيرة بلزن، زجاجتي بيرة بلزن. وأحضر كل هذا على عربة، لكن رجاء ليس على عربة نقل جث المساجين. بسرعة!

في نفس اليوم جاءت إلى مكتب أمن الدولة شكوى من أحد المتحمسين حول المائدة في زنزانة البروفيسور ظابيل. أعجب القبطان ميشنا بالأمر، فأمرهم أن يضعوا في المرات التالية في زنزانة البروفيسور قائمة طعام فندق فيدرا كي لا يتكرر ما حدث أول مرة، وهو أنهم لم يطلبوا الطعام مسبقاً من الفندق، واضطروا إلى تقديم طلب به فتأخر وصول الغداء على نحو مزعج.

بدأت الأحداث عند بروفيسور كرامير تأخذ منحى آخر بينما تردد بافليك على السجن لحضور دورس اللغة الألمانية والفرنسية مع البروفيسور ظابيل. ولطالما كانت كذلك. كان البروفيسور زير نساء شرهاً، وهذا الأمر بدأ مخبرون بافليك يأخذونه بعين الاعتبار

بعد أن أهملوه في السابق. صرخ فيهم بافليك وكأنه يصرخ في كلاب: هذه مسألة مهمة، ويمكن أن نحتاج إليها يومًا ما، ونطرح البروفيسور أرضًا. اشترى المخبرون آلات تصوير فوتوغرافية من حساب أمن الدولة، وأمرهم بافليك ألا يراهم أحد أثناء التصوير، وأن عليهم التقاط صور ذات قيمة، كما وعدهم عن كل صورة بمكافأة جيدة تنفعهم في نفقاتهم اليومية، أو ترفع عنهم ذنبًا ارتكبهوه. ثم نظر إلى أول مجموعة صور: البروفيسور كرامير مع عاهراته. غالبية الصور بلا قيمة، إلا صورة واحدة استوقفتها: يظهر فيها البروفيسور منتظرًا في إشارة مرور، ويعض أذن إحدى عاشقاته. مشهد موفق وساحر، استطاع أن يسجل لحظة فاصلة، كما أسماها المصور الفرنسي الشهير هنري كارتر بريسون، مشهد بالتأكيد يستحق النشر في مجلة معنية بالتصوير (في الخارج بالطبع، ففي داخل البلاد لا ينشرون سوى صور العاملين والعاملات). فتحت هذه الصورة أيضًا شهية بافليك: بينما أستاذ الجامعة يستمتع بجنة شهواته ونارها، أنا العجوز الشاب (لنكن أكثر دقة: العجوز العشريني) أقوم على خدمة السلام والتقدم.

كان بافليك دائمًا يقطع في كل حصة في الألمانية أو الفرنسية مع أستاذه بالغداء. يأتي حراس السجن يحملون الأطباق على الصواني، ومستعدين لفعل أي شيء للرجلين، حتى وضع فوط الطعام تحت رقبة بافليك وظايل، فاحت في أرجاء عنابر السجن رائحة الطعام، وكان بافليك يختاره مسبقًا من قائمة الطعام المملقة على جدار الزنزانة.

قال البروفيسور ذات يوم وهو يضع الملعقة جانباً بعد استحذته
رائحة الحساء الطيبة:

- أسمح لي بسؤال أيها الشاب؟ لست مجرد رجل شاب، ذكي
فوق العادة وموهوب، اسمح لي بتعبير مجازي، لك أيضاً
روح. أظن أنني أعرف طبيعة عملك، لذلك أسألك، كيف تحيا
مثل هذه الروح وسط ما تفعله؟

تجاوز فجّ للحدود. كان في استطاعة بافليك أن يجيبه بطريقة
واحدة: أنت سعيد الحظ إلى درجة كبيرة، حقيقي محظوظ لأنني
سأعتبر أن هذا السؤال لم يكن. لك فقط أن تسألني إن كنت تعلمت
الماضي البعيد في الألمانية، أو صرت أفهم أسلوب الشرط. هل
فهمتني أيها البروفيسور؟

كانت تلك آخر مرة تطرح أسئلة مشابهة لما طرحه السيد
البروفيسور.

قال بافليك:

- ماذا لو أن دورس اللغة هذه كانت في مكان آخر غير السجن،
في غرفة تدريس مناسبة؟

تجاوز فجّ، هذه المرة من بافليك. أجاب القبطان ميشنا:

- أيها الرفيق، بافليك، أرى أنك تستغل كرمي المطلق معك.
في البداية أسمح لك بوجبات غداء ملكية في السجن،

وتحول سجينى إلى ذواقه أو خبير طعام، والآن تريد أن تخرجه من السجن. حان الوقت كي أخبرك بأمر لا تعرفه. فتح ميشنا درج مكتبه، وأطال النظر فيه على غير العادة.

قال بافليك:

- هناك.

ثم أخذ من على إفريز النافذة علبة ثقاب منسية. رفع ميشنا يده بينما رمى بافليك العلبة في مسار دائري رائع عبر الغرفة. في البداية أشعل ميشنا سيجارة، ثم أخبر بافليك بحقيقة الأمر:

- كونه يعلمك اللغات فهو بهذا يطيل بقاءه على قيد الحياة. لولا هذا لكان مشنوقاً منذ وقت بعيد. موته فقط مؤجل، لكن حبل المشنقة في انتظاره. فالرجل الذي يعلمك هو من أشد أعداء الطبقة العاملة. كان على علاقة بأعضاء بمنظمة أجنتي خوتسي الذين عبروا حدودنا بتعليمات محددة من أولياء نعمتهم الأمريكان، ومن البروفيسور من أجل جمع المعلومات المطلوبة لهم. إنه مدرس لغات على أعلى مستوى بلا جدال، أفضل الأساتذة على الإطلاق. وهو أيضاً ما جعلنا نقرر إبقائه على قيد الحياة لأنك تستحق الأفضل، لكنه في الوقت نفسه منشق خطير، مخرب، ولا بد أن نتخلص من أمثاله إن أردنا أن نبني هنا جنة على الأرض. من أجلك أنت فقط، يا بافليك، أجلنا موعد وضع

حبل المشنقة على رقبته، واستجوابه بما يليق، وبلا رحمة. بمجرد أن يعلمك الألمانية سيخضع للتعذيب الشديد، وسنحصل على كل ما لديه، ثم من بعدها نسلمه للجلاذ. بفضلك صارت إقامته في السجن ألطف كي يشعر تجاهك بالامتنان، ويدين لك بالعرفان، ويظن أنه سينجو بفعلته بسببك، لكن لا داعي للمبالغة. لا تفكر إذًا أن يعلمك خارج الزنزانة مطلقًا. لن يغادر الزنزانة إلا إلى حبل المشنقة. أريد أيضًا أن أعترف لك أن هذا اليوم بات أقرب من أي وقت مضى؛ لذلك حاول أن تأخذ منه ما استطعت كي تتعلم أسس اللغة الألمانية. قريبًا سنرسل إليه بدلًا منك اثنين من عتاة المحققين، وبعدها بيوم سيعلق في حبل المشنقة. هذا كل ما لدي. صديقك ميشنا.

سكب ميشنا مع بافليك كأسين من الخمر الثقيل.

حان الآن دور الراوي كي يعتذر، ويظهر في الحكاية من خلف الكواليس، ويفتح الستارة. فأنا سأحدث عن حقائق دقيقة لا أتوقع أن يخبركم بها ميشنا.

أستاذ التاريخ فاتسلاف كرامير هو أبو البروفيسور أرنوشت

كرامير، الذي كان من أقرب المؤرخين إلى الرئيس مساريك⁽³⁾ قبل الحرب، وأقرب إليه على سبيل المثال من المؤرخ الأكثر شهرة، يوزيف شوستا، لكنه مثل شوستا كان من جماعة الجمعة، وهي الشخصيات التي كانت تلتقي بانتظام أيام الجمعة في شقة كاريل تشابك. وعلى العكس من المؤرخ شوستا الذي اتهم بعد الحرب مباشرة بالعمالة، وانتحر في مايو 1945 بالقفز في نهر فلتافا من على جسر هلافكوف، مات كرامير في معسكر الاعتقال النازي بصفته أحد المقاومين. كان شخصية مثيرة للجدل، من جماعة مساريك، لكن كرامير، شأن شوستا، وحتى مساريك نفسه، كان عدوًا للبلاشفة، رغم أنه رفض الالتحاق بالفيلق النازي المناهض للبلاشفة بكل حزم، على عكس شوستا، إبان الاحتلال الألماني. رغم هذا محا الشيوعيون اسمه من التاريخ على الفور، بعد أن تحكّموا في التاريخ أيضًا. ابنه، أستاذ الجامعة أرنوشت كرامير، أستاذ علم اللغة التشيكية واللهجات تم استبعاده من الجامعة لأن القبطان ميشنا كانت لديه أغراضه مع كل أفراد عائلة كرامير. كان من المفترض أن تشتغل هذه الأسرة المتشعبة في مختبر اجتماعي تابع لتجربة ميشنا الهائلة. الجزء الأساسي من التجربة كان سيجري في الخارج، في مجتمع المهاجرين التشيك. وكان لبافليك مكانه في التجربة، واليد الطولى لميشنا صاحب التجربة.

3- توماش غاريك ماساريك (بالتشيكية: Tomáš Garrigue Masaryk) يُلفظ أحيانًا توماس ماساريك (1850 - 1938)، سياسي ورجل دولة، وعالم اجتماع، وفيلسوف تشيكوسلوفاكي. شارك في تأسيس تشيكوسلوفاكيا. وشغل منصب أول رئيس لها. (المترجم)

لن أخبركم بأكثر من هذا، وتابعوا معي حكاية التلفيق، والاحتيال، والخيانة، والغدر، كي تتعلموا ما ينبغي أن يحدث عندما تكون القضية حياتكم.

لم يكن الكولونيل صاد مقتنعاً تماماً بخطط ميشنا، وتجنب ميشنا إقناعه لأن التجربة لو نجحت فسوف يصعدها مع بافليك إلى الطابق الأعلى في مبنى أمن الدولة في برنو. وسيصبح في مرتبة أعلى من الكولونيل صاد؛ لذلك ينتظركم كثير من المفاجآت، لكن هذا يكفي حتى الآن. وسيحني الراوي ظهره قليلاً، ويعود إلى حين إلى كواليس الرواية، حيث يتبوأ هناك مقعده.

الطريق في تايجا سيبيريا طويل للغاية، وممل. الشمس تشرق وتغرب، وتشرق وتغرب، وتشرق وتغرب، يهبط الظلام ثم يتبدد، يهبط ويتبدد، يهبط ويتبدد، لكن الشمس لا تصلنا إلى من خلال ستارة كثيفة من قمم أشجار الصنوبر التنوب. تقمصت خلال تلك الرحلة الممتدة دور شهرزاد، أشنف آذان الأيل بحكايات ألف ليلة وليلة.

دائماً في الليل نبحت عن فرجة كبيرة مستديرة، مرعى كبير بحجم مرفأ السيارات أمام مبنى الكرملين المخصص لسيارة الزعيم. ضوء الشمس بالكاد يكفي لتجفيف تلك الفرجة في النهار. فاستطعت مع وولفرين النزول من على ظهر الأيل،

والاستعداد للنوم هناك. ودائمًا ما تولى أحد الأيل الحراسة، يخبط بقرونه بانتظام على جذع شجرة الصنوبر، فتولى ما يطلق عليه البشر وظيفة خفير، وفي الوقت نفسه يحذر الحيوانات الضارية من هجوم حال دونه بتلك القرون. لم نخف من قيصر سيبيريا، النمر السيبيري، فقد تولى أمره صائدو الجلود، ودائمًا ما تفاهم وولفرين مع الدب (بأن يرمي إليه بواحد من الأيل الكسيحة).

لكنني لم أتل نصيبي من النوم. كنت آخر من يذهب للنوم، وأول من يستيقظ. كان على أن أحكي لهم حكايات شهرزاد إلى أن ينام آخر أيل، وفي الصباح أوصل الحكى لأول أيل يستيقظ، فأصاب منه بالإرهاق الشديد. يلعقني بلسانه الخشن كي يوقظني، وهي إشارة، في عالم الأيل، تعني انجذابًا جنسيًا، لكنها وسط الثعالب إيماءة مقبلة.

لكن لا مجال للتذمر، فأنا أدفع بهذه الحكايات قيمة تذكرة سفر على ظهر الأيل، ولا ينبغي أن أتوقف عن الحكى، فأنا أحب الحكايات كثيرًا.

السفر في الواقع نحو الشمال، وعبر غابة التايجا الكثيفة أمر يدعو إلى الجنون، لكنني عنيدة، والزعيم يثمن هذه الميزة فيّ، ولا أريد أن أخيب ظنه، فلا أجتاز التايجا لأصل إلى التندرا، ومنها إلى المحيط القطبي الشمالي. الهدف الأساسي وهو السير بمحاذاة نهر ينسي الذي تجاوزه سريعًا. هذا النهر له مجرى عميق، تعلو واديه صخور وعرة، وخاصة هنا على شاطئه الشرقي الذي لامس

التايجا. رياح تهب من النهر، ورطوبة كثيفة، ولا يوجد ما يجبر الأيل على السير على شاطئ صخري وعر.

بينما الأيل ترعى على كل ما هو أخضر، يصطاد لنا وولفرين القوارض، وأحياناً الكبير منها، ويقدمه مع ثوم ثعابين سبيريا، وهو طعام ألد مما تتخيلون.

انتهى صيف سيبيريا القصير، وكان ستارة هبطت. اختفت ستارة الأغصان الكثيفة ومعها الذباب الأسود (الذي لا يخترق جلدي بأي حال)، لكن نزل صقيع شديد، وتغطت بالثلج أشجار الصنوبر والتنوب. لست ثعلباً قطبياً، لذلك لم أسعد بهذا المشهد، إلا عندما يصطاد لي وولفرين المثابر المنصف حيواناً كبيراً موبراً من حيوانات سيبيريا، يعلقه، ويسلخه فأرتدي فراءه على شعر جلدي الأحمر. هذه السارية الحمراء التي تحميني من البعوض، والذباب الأسود، لا من لسعة الصقيع وأنيابه.

قام وولفرين على رعايتي بحنان جعلني أفكر بعد عودتي إلى الكرملين أن أطلب من الزعيم أن يعين وولفرين، إن وافق وولفرين نفسه، موظفاً في اللجنة الشعبية، تماماً كما عين القيصر كاليجولا حصانه المفضل يوماً في وظيفة مستشار له. لم أشك في موافقة الزعيم على اقتراحي.

لم نلتق حتى الآن أثناء مرورنا بالتايجا بأي إنسان، لا أثر لأي كائن بشري، السبب هو أن الأيل حريصة على تجنب البشر مع

على مسافات بعيدة. فخبراتهم معهم ليست طيبة؛ لذلك بدت التايجا لنا منطقة خالية من البشر، لكن الأمر تغير فجأة رغم تقبل الأيل الأمر على مضض.

حكيت للأيل حكاية علي بابا، وفي اللحظة التي نطق فيها علي بابا عبارته السحرية، افتح يا سمسم انفتح أمامنا جذع شجرة بلوط ضخمة، وأعدادهم وسط أشجار الصنوبر لا حصر له، انفتح الجذع، وخرج منه رجل على وجهه قناع حصان. وعليه انفتحت كل صفوف جذوع الأشجار الطويلة، وخرجت منه وجوه كثيرة عليها قناع خيول. انزعجت على ما يبدو من وجودنا. أمسك كل منهم بيد الآخر، وشكلوا سلسلة سدت الطرق أمامنا.

فهمت أننا أمام جماعة دينية تختبئ هنا في أعماق التايجا من ملاحقة الزعيم لها. بدوا جميعاً رغم هذا القناع وكأنهم رهبان بقلنسوة، رهبان خرجوا من قلب أشجار جوفاء، مثلما يخرج النُّسك من مغاراتهم، من كهوف الرهبان.

حاولت أن أتحدث بالروسية. ربما ارتبكت أقنعة الخيول من كلامي، لكنها لم تندهش. لم يجبني أحد منهم، وظلوا وافقين في سلسلة لا تخترق، لكنها الآن اهتزت، ورأيت سيوفاً طويلة مخبأة تحت قلنسوة الرهينة.

ملنا جهة اليسار، فوجدنا أن تلك الأشجار الضخمة (وأغصانها التي التوت عليها عقد سميكة) لا تشكل صفّاً، بل مستطيلاً كبيراً،

يحتل نحو عشرة هكتارات.

لم تكثرث الأيل بما رآته، وانحرفت جانباً، بينما أوصل إلقاء الحكايات العربية، وكأن هؤلاء النساك المدججين بالسيوف مجرد جوزة بلوط لا تستحق الأكل. حان الوقت كي نعود لمقابلة الرهبان في وقت متأخر من المساء، بعدما غرقت التايجا في الظلام، وتلألأت حبة ثلج بين الحين والحين، وبقيت أنا مع وولفرين على ظهر الأيل، ولم تتم الأيل ليلتها على الأرض، واستغرقت في النوم واقفه على أقدامها.

وولفرين الذي علم بكل شيء، أو كاد، وما لا يعرفه حسبه على الفور، شرح لي الآن (تتطير فوق رؤوسنا بومة الثلج، لمعت أعينها وكأنها مصباح كشاف في يد رجل شرطة، وتتساقط كتل الثلج على رؤوسنا، وأبأ وجودها عن اقترابنا من التندرا) بأن التندرا في سيبيريا مليئة بالأساطير المعروفة، وصرنا على ما يبدو شهوداً غير مرحب بهم على وجود واحدة من هذه الأساطير.

قال وولفرين وهو ينفذ عنه كومة ثلج أسقطتها عليه بومة:

- هربت كبيرة الكهنة، أنستاسيا، أصغر أبناء القيصر ميكولاش الثاني من قبضة فريق الإعدام التابع للبلاشفة. يقال إنها جلست ذات يوم في المرحاض، فسمعت صوت طلقات فريق الإعدام، وصرخاً، وبكاءً، فسقطت في حوض المرحاض حتى قاعه، ثم خرجت منه ملوثة بالغايط لكن

سالمة، واستطاعت الهرب بينما عصابة البلاشفة تدفن جثث الآباء والأبناء في مكان بجوار الغابة. لم تكتشف فرقة الإعدام غيابها إلا أثناء دفن جثث أفراد عائلة القيصر، لم تهتم فرقة الإعدام بالأمر بعد أن أعياهم الحفر، وتوقفوا عن البحث عنها، ولم يعترفوا يوماً أن واحدة من أسرة القيصر هربت منهم، وتعيش الآن في ذلك المستطيل الذي يحرسه النساك الذين يضعون أقنعه الخيل على وجوههم. تعيش هناك في سلام وأمان منذ عدة عقود، يحرسها فرسان الكهنة المستعدون للتضحية بحياتهم من أجلها، ومتأهبون لعمل كل ما هو ضروري للحفاظ على أرواحهم التي شابها الإفراط.

علقت على ما قاله وولفرين قائلة:

- لكن تنفيذ كل هذه المهام في تلك البقاع الموحشة يتطلب من نساك مثلهم ما هو أكثر من الولاء، والجلد، والاجتهاد، يتطلب مهارات أكثر بكثير مما عرفها لص بغداد.

أجاب وولفرين: هذا صحيح.

دخلنا في الأيام التالية إلى التندرا. الطقس فيها شديد البرودة. ندرت القوارض في قائمة طعامي بعد أن اعتاد وولفرين تقديمها لي، ومعها تناقست أرانب سيبيريا. استطاعت الأيل أن ترعى على نباتات الأشنة التي بحثت عنها تحت الثلوج، لكنها بلا مذاق أو طعم.

قال وولفرين:

- أليس من الأفضل أن نتراجع؟

رغم أنه عرف جيداً أن تعلقي بالزعيم يدفعني إلى أن أثبت له أنني على استعداد أن أقفز مثل الكلاب، وأن أطلق النار من أثقل المدافع التي تسقط نيرانها على المحيط المتجمد الشمالي. تود الأيل كذلك العودة إلى التايجا، لكنها تعرف جيداً أنها بذلك ستقطع حبل حكايات شهرزاد التي تصاعدت، ولا يمكن العودة إلى الوراة خطوة واحدة.

لأول مرة نلتقي في سيبيريا بفصيل حيوان الرنة. حاولنا تغيير وسيلة النقل، لكن عبرت الأيل مجدداً عن رفضها التنازل على سماع الحكايات، والشجار مع حيوانات الرنة بسببها، وهو ما قد ينتهي بمجزرة بشعة. رغم هذا فقدت حكاياتي جاذبيتها بعد أول خمسمئة حكاية عربية حكيتها، وبقيت أعيد ما قلته، وأزيد ما أعيده، مثل مطحنة فاسدة، لكن الأيل مثل الأطفال، ما إن تحكي لهم مثلاً جملة واحدة من حكاية يتعلقون بحمالات بنطالك، حتى ولو لم يكن لك حمالات.

الصيف في التندرا له سحره بالتأكيد، إنه مثل تورتة زفاف ضخمة (دعوني أبالغ قليلاً)، ينبت فيها من سوط الطحالب، وسعد المستنقعات والأشنة، وكل تلك الكائنات الغثة أعشاب متنوعة، وشجيرات ملونة، بينما الشتاء له سحره الفريد؛ جبال الثلوج على مدى البصر.

مشينا قريباً من نهر ينسي. خرج النهر هنا عن مجراه العميق يهدر مثل عاصفة هائجة. أحياناً يتحول الهدير إلى ما يشبه همهمة الأيل وعويلها. أمر يدفع الإنسان إلى الجنون، الإنسان وليس الثعلب الأحمر، وهذا ما حدث بالفعل.

فجأة رأيت من بعيد شيئاً يلمع في شمس الشتاء وكأنه صندوق مجوهرات القيصر، لكن ما إن تقدمنا، واقتربنا أكثر تذكرت أن الزعيم أمر ذات يوم بأن ينحتوا من جبال الثلج في الميدان الأحمر (أمام الضريح) تمثالاً لقائد البروليتاريا العظيم، تمثالاً يصبح عملاً فنياً فريداً في فن النحت الجليدي: لينين الحي.

لكنها مدينة كاملة من مكعبات، وأشباه مكعبات، ومستطيلات ثلجية، وأسطوانات، وكرات، ومخروطات. بيوت، وشوارع، وميادين، ومعابد، وقصور، وقلاع، وجسور، وحتى المسارح، والأسواق، والحانات، والخمارات. درنا حول هذه المدينة مع قطع الأيل عدة مرات، وهو ما استغرق بعض الوقت. انطبعت معجزة العمارة الثلجية في رأسي الأحمر الصغير إلى الأبد.

ما هذا؟

وقف وولفرين الذي طالما علم بكل شيء ينظر في دهشة. وسرعان ما لمعت عيناه وكأنه يرى حملاً صغيراً شرد عن سرب أغنام، لكنني عرفت ما سيخبرني به، قدح زناد فكره من أجل ألا يفقد سمعته كعليم ببواطن الأمور.

هذه بالطبع مدينة خورخويجراد. أريد أن أضيف أن أولجوي خورخوي لا حدود لها مع منغوليا وسيبيريا، لذلك بنى الزعيم في التندرا هذه المدينة، خورخهراد.

اندهش سرب الأيل من هذه الأخبار، أصابت أبدانهم كصاعقة تيار كهربائي شديد، أولجي خورخوي هي كلمة سيئة السمعة في منغوليا وسيبيريا، لكنني الآن صرت أشك في كل ما قاله لي وولفرين. لم يكن موفقاً فيما قال. شعرت بالخجل من أنني صدقت ما قاله حتى اليوم. هراء أحقق تجاوز حدود ثقتي به، لكن أياً كان الوضع، فقد وضعت صورة هذه المدينة الثلجية في ألبوم ذكرياتي للمرات القادمة.

ما زال أمامنا طريق طويل، وكان عليّ أن أقول: حسنًا، طالما الأمر كذلك، أعتقد أن علينا أن نبتعد قبل أن ينتبه إلينا أهل خورخوي.

اخترت من حكايات ألف ليلة وليلة حكاية البحار سندباد، ولقاءه بطائر الرخ، فتحرك سرب الأيل.

كنت أعرف أن صدر وولفرين سيضيق خلال ذلك الطريق الطويل إلى المحيط المتجمد الشمالي، وأثناء العودة مروراً بالتندرا، وسيعرض كل حيوانات سرب الأيل طعاماً للإفطار والغداء والعشاء، واحداً تلو الآخر، باستثناء اثنين منهم، هما بمثابة دليل في سيبيريا، وسنعود على ظهريهما إلى التايجا

عندما تتحول إلى طريق إسفلتي يعج بمخلفات المدينة.

أسندوا البروفيسور ظابيل من كلا الجانبين وهم يقتادونه خارج الزنزانة التي تعرض فيها للتعذيب الشديد على يد اثنين من عتاة المحققين، فصار لا يعنيه ما سيحدث لاحقاً. ينتهي الدهليز الطويل في سجن تسایل بما يشبه دير السجن، في محيطه فناء الجنة، رواق فيه مقصلة تنتظر ظابيل.

شعر بافليك أن الأمر لن يكون سهلاً عليه. حاول الحيلولة دونه قدر استطاعته بعد أن تعاطف مع هذا الرجل، أحد أفراد الطبقة البرجوازية المنصرمة. خاصة عندما علم أنه قد ذهب إلى مكان لن يعود منه أبداً. ود لو عارض ما حدث مع البروفيسور ظابيل، على الأقل في نفسه، لكنه لو فعل سيخون قناعاته. الأمر بمثابة اختبار للشخصية التي قال عنها ميشنا إنها شخصية بناء أخلاقيين للمجتمع الاشتراكي: أتعامل وأفكر دائماً بحيث يصبح سلوكي وأفكاري قانوناً في ديكتاتورية البروليتاريا. حاول بافليك تخيل البروفيسور ظابيل المعذب قبل أن يضعوا حبل المشنقة حول رقبته، تخيلهم وهم يقفزون إلى كواليس الرواية، ويطلبون من الراوي (أي مني أنا) أن يعيرهم للحظات الكرسي الذي يجلس عليه أحياناً (مقعد بلا مسند) كي يضعوا عليه البروفيسور، ثم يرفسون هذا الكرسي. (ثم يعيدون لي هذا المقعد في كواليس الرواية).

ظل بافليك يتخيل، سعيًا منه أن يحافظ على هدوئه كمشاهد لا يعنيه الأمر. كان ذلك تدريبيًا كي يتراجع تعاطفه مع البروفيسور، ويخفت ثم ينطفئ. عرف القبطان ميشنا جيدًا ما يحتاج إليه بافليك بشدة في هذا الوقت تحديدًا.

- احزم أغراضك الضرورية، فغدًا ستسافر إلى منتجعات قسطنطين. ولا تتوقع أي مهام هناك. ستذهب للاستجمام لا غير.

- عفوًا!؟

- ستقضي هناك أربعة عشر يومًا في فندق يراسيك. لن ترى عند البوابة قوص نصر يرحب بك: مرحبًا بعضو أمن الدولة المختار. ستكون هناك متنكرًا، بمعنى آخر، زكرة، ولك مطلق الحرية في أن تقضي وقتك كيفما تشاء. أي أسئلة؟

- هل كل الفنادق بها كل هذا العدد من عاملات الغرف الحسناوات؟

هل كل مصنع به كل هذا العدد من الأذكياء النابهين؟

- لا تحقري من شأن الطبقة العاملة.

- أنا لا أجزؤ. أنتم، معشر العمال، أنتم رواد التقدم، أنتم التيار البشري اليقظ الذي يحرك نهر التاريخ الإنساني الراكد، أنتم مسيرة مهيبة للرجال الحقّة...

- لا تتعجلي في الحكم! أُملي عليّ، من فضلك، ما يجب أن أسجله.

ينفجران في الضحك.

- أنا كاترشينا رولوفا، نادني باسم كاتيا.

- بافيل ناهيل. نادني باسم بافليك، لكن عندي سؤال. متي تنتهي ورديتك؟

يقفان للحظات متقابلين، يتحسس أحدهما الآخر بعينيه، بينما بعيداً عن هنا، في سجن تسايل، يحملون إلى المحرقة جثة البروفيسور المشنوق ظايل على إحدى العربات، وفي اللحظة الأخيرة يأتي شاب مهرولاً، يصرخ: هل جننتم؟ أيها المغفلون؟! توقفوا فوراً! مع الجثة حبل جيد من القنب! ثم يميل على الجثة، ويخرج من جيبه سكيناً مخصوصاً بعد أن عجز عن سحب الحبل مع على رأس الجثة، ثم يفك عقده.

- يا آنسة كاترشينا، يا كاتيا، تفضلي، واذهبي للتحقق من قائمة مهامكم.

- لا داعي لهذا؛ لأن ورديتي عملياً لا تنتهي أبداً. فعندما تقترح الآن أن أعرفك على منتزه المنتجع فأنا أعتبر هذا ضمن مهام خدمة الغرف.

- عرفيني من فضلك على منتزه المنتجع.

بعد مرور ساعة:

- أخبريني، هل كل العاملين في خدمة الغرف لهم نفس الإيقاع السريع؟
- هذا ليس سؤالاً نبيلًا، لكن أتعرف، يمكنني إبطاء الإيقاع إن أردت. أنا مدربة على كل السرعات، لكن أخبرني، يا بافليك، أتري نقطة على الحائط؟
- كيف لي أن أراها؟ مهما حدقت، فالظلام هنا شديد، ما الأمر؟
- لا شيء. أردتك فقط أن تستدير كي أجلس على ظهرك. لنواصل!
- هل أنت مجنونة! أنت تسيطرين على روحي.. لكن أكملني، أكملني، لا تتوقفي....
- أشرب قهوة، أم أفتح زجاجة أخرى؟
- لم أر مثل هذا من قبل وأنا في العالم منذ ما يقرب من عشرين عامًا.
- أنا، يا بافليك، أنا في هذا العالم منذ آلاف السنين، ومر عليّ سرب كامل من شباب مثلك. أستطيع القول إنني خبيرة فيهم منذ زمان، مثل الملكة نفرتيتي، إن كنت تعرف من

هي.

شعر بافليك في بداية الأسبوع الثاني أن عليه العودة بعد أسبوع إلى برنو. ماذا لو طلب من ميشنا أسبوعاً آخر.

- حسنًا، من الجيد أنك اتصلت، وإلا كنت سأصل أنا بك. إقامتك عندك انتهت قبل موعدها، سأرسل لك سيارة، وستعود في المساء.

- أثبتت شبكة المخبرين جدارتها. بفضلها توصلنا الآن إلى أخبار لطالما انتظرناها. حدث اتصال بين البروفيسور كرامير والمهاجرين. يعرضون عليه مروراً آمناً عبر الجبال، وسوف يتولى أفضل المرشدين أمره، وستكون أوضاعه هناك في أفضل حال. أبوه، هذا المناصر لمساريك، ما زال يتمتع بسمعة طيبة في الغرب. قررت المخابرات الأمريكية تأسيس محطة إذاعة في ألمانيا الغربية، اسمها حتى الآن راديو ليبرتي، أوروبا الحرة، ويحجزون مكاناً فيها للبروفيسور كرامير. لن نمنعه من عبور الحدود، بل سنشجعه من خلال المخبرين؛ لأن الحدود ستؤمن بالأسلاك الشائكة بدءاً من العام القادم، وسيصبح عبورها أشد تعقيداً. وبعد أن تستقر أوضاع البروفيسور كرامير، نخصص له جاسوساً يبحث عن نقطة ضعفه، وعندما نحاول أن نجمع معلومات عن كل المهاجرين التشيك. والآن لك أن تخمن اسم هذا الجاسوس.

- أنا لست متمكناً بعد من لغتي الألمانية. ما أحدثته هي لغة جوتا، وشيلار، وأخاف من إجراء محادثة عادية بالعامية الألمانية.

- كان عندك أفضل أستاذ، وتتمتع بموهبة كبيرة. بخصوص المحادثة تدبرت لك رجلاً ألمانياً. أعطوه لنا الرفقاء في مركز شرطة لوبيانكا في موسكو. إنه عضو سابق في الجستابو، متخصص في استجوابات الخصوم، وهو بالتالي أنسب للمحادثة. عمل إبان الحرب تحت إمرة هيملار. حتى الآن لا أعرف متى أرسلك لملاحقة البروفيسور. ربما بعد عامين. حسب الظروف، كما يقولون، ماذا عن لغتك الفرنسية؟

- ليست كما ينبغي. لقد ركزت اهتمامي على الألمانية.

- لا بأس، بعد عامين لا بد أن أقرر بشأن هويتك، ودورك الذي ستقوم به هناك، لكن عندي الآن مفاجأة لك. كاترشينا؟ كاتيا؟

- هل وضعتني هناك تحت المراقبة؟

- لست أنا، ولم يكن الأمر متعلقاً بك، بل بي أنا. الكولونيل صاد يتشكك في مشروعني الذي ستلعب فيه دوراً مهماً. يود إثبات أنك لست شخصاً جديراً بالثقة؛ لذلك وضع عليك مخبراً.

- وإلّا توصل هذا المخبر؟

- لم يتوصل إلا إلى أنك ضاجعت كاترشينا. وأنها لا تعرف عنك سوى أنك عامل، خراط، وأنت متحفظ في كلامك.
 - لا بد أن هذا المخبر كان قريباً مني جداً.
 - عندما علم صاد أنك ستنزل في فندق يارسيك، وضع فيه أجهزة تنصت. وعندما ذهبتما إلى منتزه المنتجع ذهب في أثركما أحد الكلاب المدربة وفي طوقه جهاز تنصت مخصوص.
- رفع بافليك رأسه ناحية السقف.

- لا تخف! هذه هي الغرفة الوحيدة في أمن الدولة دون أجهزة تنصت. أنا من وضع أجهزة التنصت، وقادر على أن أوقفها كلما أردت. بالمناسبة، قدمت نفسك لعاملة الغرف على أنك بافيل ناهيل، وفاتك أن هذا الاسم قريب من اسم ظابيل. بروفيسور ظابيل لم يعد على قيد الحياة، لكنه ما زال يسكن روحك. لا بأس، ليبقى هناك لبعض الوقت، لكنني وعدتك بمفاجأة. لن تخسر كاترشينا. منذ الغد ستكون عاملة غرف في أفخم فنادق برنو، فندق جراند. ظروف عملها فيه أفضل بكثير من منتجعات كونستانتين. كاترشينا هي هديتي لك. اخترتها لك بعناية من وسط مئات المرشحات. استمتع بها، لكن لست مضطراً للزواج بها.

تنفست الصعداء عندما أخيراً عدت إلى موسكو عبر طريق سيبيريا السريع، ونزلت في محطة ياروسلافسكي. كانت رحلة سيبيريا في مجملها مجرد لقمة كبيرة في فم ثعلب أحمر صغير.

قال الزعيم:

- ها أنتِ قد عدتِ. قفي هنا.
- ثم تراجع قليلاً وهو يرمقني بنظرة فاحصة.
- أيتها الفتاة، تبدين في حال أفضل مما توقعت. من الواضح أن رحلة سيبيريا أفادتك.
- قلت بلغة الحيوانات كي لا أستفزه: لم أعد منها بأي فائدة.
- (حسناً، لمن يهमे الأمر: فشلت في إحضار وولفرين معي إلى مكتب اللجنة الشعبية. فقد اخترت له اسماً سيئاً عندما أسميتها بليخانوف. فالرجل الذي حمل هذا الاسم هاجر بعد ثورة أكتوبر).
- اجلسي هنا، واحك لي. أشعل غليونه وأخذ يستمع باهتمام إلى حكايتي في سيبيريا. وعندما وصلت إلى نقطة الرهبان بأقنعة الخيل، هز يده، وقال:
- لا وجود لأنستازيا، ابنة القيصر هذه، كانت تلك مجرد كنيسة لطائفة البوجوميليين. وهي طوائف رحل، طردها إلى التندرا لتعيش هناك كما يحلو لها.
- لكن انتبه عندما شرعت في وصف المدينة التي بنيت من أشكال

ثلجية، مكعبات، وأشباه مكعبات ومستطيلات، وأسطوانات، وكرات، ومخروطات: بالطبع لا وجود لأي خورخويجراد. فأنا حتى الآن لا أعرف من بناها، لكن تعالي، وأخبريني ما هي، ثم فتح كتابًا ضخماً، فيه مئات الصور لمختلف المدن.

قلت له:

- عد إلى الصفحة السابقة. لقد رأيتها.

عاد إلى الصور السابقة، فوضعت قدمي الحمراء على صورة مدينة.

قال:

- راديبوجا، إنها مدينة براغ. أقام أحدهم في التنديرا القاحلة نموذجًا لمدينة براغ. يا لها من صدف.

صمت للحظات، سحب نفسًا من الغليون، وأطلق حلقات الدخان في سقف الكرملين، ثم قال:

- أتعرفين، خاب ظني في أبنائي، في ابنتي، وفي ولدي الاثنين، فقررت أن أتبنك ابنة لي. صرت الآن أعرف عنك الكثير، أعرف ما يكفي كي أتأكد من صواب هذه الخطوة؛ لذلك سأعهد إليك بمهمة لا توكل إلا لأقرب المقربين. استريح، وبعدها ستشدين الرحال. براغ في انتظارك، هذه المدينة العامرة. وحتى هذا الوقت يمكنك أن تقرئي

شيئاً عنها. تعرفني على تاريخها، وعلى كل ما بها.

في هذه المهلة القصيرة التي أعطاني إياها قبل أن أشد الرحال،
بث الزعيم في نفسي السرور، وطيب خاطري.

قال الزعيم:

- روسيا مشهورة في كل أنحاء العالم بالسيرك الذي يجوب
قارات العالم، ويسافر بمباركة مني. أوصاني زفيزدا الذي
عسكر على تخوم موسكو قبل سفره إلى أمريكا بهذا السيرك.
بعدها عرفت لماذا أوصاني بالسيرك تحديداً. فقد اشتهر
بعرض فريد للثعالب، وكانوا يطلقون عليه العجلة الثعلب،
والإكسبريس الثعلب، وكذلك التورنيديو الأحمر.

تدخل تسعة ثعالب إلى حلبة السيرك، ويحرك كل منها ذيله، ثم
تقف على شكل دائرة، وكل منها يضع ذيل جاره في فمه جاره
بشكل لافت، بحيث تشكل هذه الذيول دائرة مغلقة، ثم تجري
في شكل دائرة حول الحلبة، وتتزايد سرعتها. نسيت أن أقول
إنها كانت في الوقت نفسه تحمل قبعات بحذر كي لا تسقط
وسط هذا الاندفاع، بينما المشاهدون يتابعونها وهم يضحكون
ويصفقون للثعالب وهي تجري، وتتزايد سرعتها، تتلاحق، ويطارد
أحدها الآخر في دائرة تتعاظم سرعتها، حتى وقف الناس على
المقاعد، يصفقون ويصيحون، ثم دارت الثعالب في الحلبة بسرعة
كبيرة كادت ملامحهم تختفي فيها، وكأنه إكسبريس الثعالب،
وكانها زوبعة، دوامة عاصفة، أو تورنيديو. بقيت الناس واقفة على

مقاعدها، تدق بأقدامها من الحماس. أكملت الثعالب دورتها، ثم توقفت، وحررت فمها، كل ثعلب يلكز الآخر، ويدفعه، ويعضه، ثم عوت، وصفرت، واختفت من الحلبة، باستثناء الثعلب التاسع؛ أفلت منهم، وحتى جسده بخفة قبل أن يختفي، وهز قبعته.

تلك كانت فقرة رائعة، استعراضاً كبيراً، أسعد الناس، وخاصة ذلك الثعلب الذي انفلت منهم في نهاية العرض، ومال قليلاً هو وقبعته. اليوم لا تجدين مثل هذه الكياسة. تابعت كل هذا بتأثر كبير. تابعت الناس وهي تجلس مفتونة بالعرض، وما زالت تنظر إلى الحلبة الفارغة. ثم انصرفوا رويداً كأنهم يحلمون، يرافقهم أولادهم، واصطحب بعضهم أطفالاً غرباء عنهم، على سبيل الخطأ، يصرخون فيهم معترضين، بينما الآباء الغرباء يلطمونهم على ظهورهم، وينصرفون معهم عائدين إلى بيوتهم. أتخيل بعدها هؤلاء البشر في أسرتهم الخشبية، أو الحديدية، أو المرمرية، أو الكرتونية، يحلمون بالثعالب طوال الليل.

بدا الزعيم راضياً من إعجابي بالعرض، لكنه نهني إلى أنه مجرد تدريب للثعالب، لا أكثر. وليس في رأسها ذرة حكمة:

- عندما تقومين بالمهمة الحساسة التي سأוכלها إليك الآن ستقف روسيا كلها على المقاعد، والمغاسل، والطاولات، وعلى جذوع الأشجار، وحزم القش، وحتى على الصوامع، وستصفق روسيا بأكملها، وطالما ستظهرين الآن وسط الناس يجب أن يكون لك اسم. وأنا اخترت لك اسمًا، أجنيا

أليسكايفنا.

- عفواً، لا أريد هذا الاسم. لقد اخترت اسمي بنفسي. فأنا لست ذاهبة إلى خاباروفسك، أو إلى ياكوتسك.

- وما هو؟

- سيلفا، اسمي سيلفا.

هز الزعيم رأسه، وقال:

- عزيزتي سيلفا، صباح غد ستسافرين إلى براغ بالطائرة.

- عفواً، هذا أيضاً لا أريده. فعندي حساسية من الطيران. أريد الذهاب إلى هناك بالقطار.

- هلا أخبرتي، ما سبب هذه الحساسية؟ حسناً، كما تشائين، فلتذهبي بالقطار إذاً.

سافرت في كابينة مخصصة لي وحدي، لكن القطار المتجه إلى براغ تحرك ببطء مثل إيليا موروميتس.

حانة روزتلاتشيلي الصغيرة المحصورة بين شجرتي بلوط عظيمتين صار اسمها الآن بود شيبيلبيرج، لكنها ما زالت صغيرة، تستقبل ميشنا ولقاءاتها الخاصة واجتماعات العمل.

مثلما في أول مرة، جلس ميشنا مع بافليك على نفس الطاولة.

إن أردتم إلقاء نظرة الآن على الأطباق، فسيسمح لكم الراوي: لحم أرنب مرصع بقديد الخنزير، وفطر، وطماطم، وبطاطس محمرة، فضلاً عن النيذ الأبيض بالطبع. القبطان ميشنا يهز رأسه، فيشغل النادل أسطوانة لأوركسترا جلين ميللر، **Farewell Blues**.

- يا بافليك، البروفيسور كرامير صار وراء الحدود. عبرها أول أمس. نتوقع أن يستقبلوه هناك بالأحضان. وربما كذلك يجلسون، مثلما أجلس معك الآن، في إحدى الحانات الصغيرة في ميونخ غالباً، وربما يستمعون كذلك إلى موسيقى البلوز. وأحدهم يرشده، كما أفعل معك الآن، إلى الخطوات التالية. كيف هو مذاق لحم الأرنب؟

- عفواً؟

- سألتك عن رأيك في لحم الأرنب.

- المعذرة، ليس طيباً كما ينبغي، فأنا لا أحب لحم الأرانب.

- كم يحزنني هذا حقاً، كان عليّ أن أستشيرك في نوع العشاء. كان يمكن أن يكون قواقع بالفلفل، أو سلطعوناً على طريقة مالي، أو بجة مشوية. فهذا عشاء فاخر. سيبدأ راديو أوروبا الحرة بثه من ميونخ قريباً. البروفيسور كرامير هو ابن مؤرخ شهير، رجل وطني مثله، ومن أنصار أتباع مساريك، يغريه العمل في هذه المحطة المرموقة. لديهم هناك بالطبع شخصيات مهمة وقديرة من

المهاجرين، بيروتكا، وتجريد، لكنهم في حاجة إلى ثالث كي يصنعوا معًا ثلاثية، الملوك الثلاثة. اسم رنان. إبان الاحتلال الألماني ظهرت ثلاثية مقاومة شهيرة، مورافيك، ماشين، بالابان. والآن صارت بيروتكا، تجريد، كرامير.

أدار النادل الأسطوانة على جانبها الثاني، لتتصاعد منها موسيقى

.Moonlight Serenade

- لا يجب أن نتلكأ، يا بافليك. إن كنت خطت في البداية أن أرسلك إلى هناك بعد عامين، حتى يستقر البروفيسور كرامير، فأنا الآن أفضل أن نختصرها إلى عام واحد. وستستغل هذا العام كي تتعلم الإنجليزية. المعرفة الحقة بالإنجليزية ستضيف إليك هناك مزيدًا من الثقة لدى الآخرين، ولأنه لا يوجد في قسم اللغة الإنجليزية بمدينة برنو أحد الإنجليزية هي لغته الأم فقد تدبرت هذا الأمر في براغ. الرفقاء في الإدارة المركزية في شارع بارتولومسكا ينتظرون وصولك. وسيستقبلونك الشهر القادم، لكن قبل أن ترفعك مرسك من هنا لا بد أن تدرب خليفة لك، رجلًا يحل محلّك، ويقوم على متابعة المخبرين الذين يراقبون أسرة كرامير، وكل أقربائهم. أنخيلهم جميعًا ضالعين في هذه اللعبة التي نلعبها مع البروفيسور، سأخذهم كبيادق. سيكونون جميعًا في مرمى النيران، حسب تعبير لاعبي الشطرنج. في صحة البروفيسور كرامير!

رفع ميشنا كأسه وقرعها بكأس بافليك.

ظلا جالسين للحظات بعد شرب النبيذ، لم يتطرقا إلى موضوع كرامير من قريب ولا بعيد، ميشنا يعلم بافليك تدخين الغليون. وفي الخارج ينتظرهما مساء خريفي بارد، لكن لا تخافوا عليهما. فكلاهما لديه معطف جلدي بياقة من الفرو، وبطانة ثقيلة، ذلك اللباس المدني لأفراد الجيش السري المختار.

لا يهبط ميشنا إلى الشارع المنخفض المظلم حيث عربات الترام، بل يصعد وسط الأشجار تجاه قلعة شيلبيرج المعتمة. لا يصل إلى جدران القلعة، بل يتوقف تحت شجرة زان ضخمة، وينتظر بافليك. - تبقى أمران أود أن أخبرك بهما، وفضلت أن أتحدث هنا، في الخلاء.

(الراوي لا يرى أي خلاء في هذا الظلام، وتحت تيجان الأشجار، لا يرى سوى نقطتين مشتعلتين من غليون كل منهما، لكن لا بأس، سنستمع إلى هذين الأمرين، وما سيخبر بافليك به).

- أردت أن أخبرك بهما من قبل، لكنك تعرفهما من نفسك. فأنا لم أرزق بولد، لكنني محظوظ من أنني عثرت عليه، واخترته بنفسي. تبنيته. أعرف منذ وقت بعيد أنني وفقت في البحث والاختيار، ثم يضيف بصوت خافت: حتى يفرقنا الموت.

حفيف أشجار الخريف في الحديقة يعلو، أو هكذا يراه كل من

ود الإنصات. ويبدو أن ميشنا وبافليك يترقبان ما سيقوله الآخر، يحتضن الظلام من حولهما ذلك الصمت المتبادل. وبعد سكوت وترقب لثلاث دقائق يستأنف ميشنا كلامه بحماس:

- أمر آخر هام، أظن أن عليك أن تعرفه. بدأت الأمور تتضح أكثر بأن طريقة عملنا تحتاج إلى إعادة نظر، لا أقول إصلاح، فهذه كلمة لا أحب استخدامها، لكن لا بد من تجربة أسلوب آخر. أسلوب يتبعه الكولونيل صاد، إنها طريقته الخاصة، فهو صعب المراس، وأساليبه عقيمة. يراهن على استجابات عنيفة في الوقت الذي يتطلب الأمر وسائل نفسية أكثر نعومة. يرتكب مجازر، أو لنقل إن طريقه محفوف بالجثث، بينما كان في مقدوره أن يتعامل بطريقة أكثر حنكة مع كثير من الذين شنقهم، ونال منهم ما هو أكثر من الدم والبول. من المفيد في مهنتنا هذه استغلال البشر، وليس تصفيتهم من أول وهلة. لقد اتفقت على هذا مع بعض الرفقاء الأكفاء، في طريقة لوضع حد لأسلوب صاد. من جهة أخرى أظن أن ماضي الكولونيل ليس نظيفاً تماماً.

في تلك اللحظة تطاير فوق رأسيهما طائر، ربما بومة صغيرة، والبوم هنا شديد الندرة رغم أنها مطلوبة، وخاصة الآن، لذلك جاءت. اصطدمت بشجرة التنوب الضخمة. يثني الراوي (وهو أنا) على البومة: خيرًا فعلت، أيها الطائر الصغير، لكن من فضلك،

افعلها مجدداً، وبقوة، فتطير البومة، وتسقط زخات من أقماع زهرة التنوب على رأسي بافليك وميشنا. ينتفض ميشنا دون أن يدري أنها أمارة سوء، وينهي حديثه:

- ربما ما أنا مقبل عليه خطير للغاية. صاد ما زال يتمتع بثقة كبيرة من رؤسائه؛ لذلك لا أود أن تكون جزءاً من هذا المشهد. لو ساءت الأمور فسوف تتورط فيها. وستتعرض مهمتك وسط المهاجرين التشيك للتهديد. وفشلها سيجعني حزيناً بقية حياتي؛ لذلك سأحرك الأمور بعد أن تذهب إلى براغ. ها أنت الآن عرفت ما أفكر فيه، كي تكون على علم، وهذا كل ما لدي.

انتهى بينهما الحديث في هذا الأمر، وشرعا يتحدثان في آلاف الأمور الأخرى وهما يغادران حديقة البوح، أمور لا علاقة لها بالكولونيل صاد، لكننا الآن سنتحدث في أمر مر علينا من قبل مرور الكرام.

بعد أن هم ميشنا وبافليك بالانصراف بغليونين لم ينطفئا بعد، وغادرا الحانة الصغيرة (كان ميشنا حريصاً على أن يتحدث مع بافليك بعيداً عن مرمى أعين محتملة، كان يشك بأن كل غرفة مجهزة بعين تراقبهما) مد النادل يده على فوطة ملقاة كان ميشنا مسح بها ذقنه، وصلب على صدره كأبي أرثودوكسي عتيد هو يمد بها يده إلى كلب ليشتمها، كلب بطوق خاص مزود بجهاز تنصت، وأعطاه أمراً بعينه (تتبع هذين الرجلين!)، ثم دفعه في الظلام

خلف الحانة الصغيرة، وانصرف بعدها يصب ثلاث كؤوس فودكا.

مر يومان أو ثلاثة من أيام الخريف العادية تمامًا، انتشر خلالها الزبالون في شوارع برنو ينظفون الأوراق المتساقطة. سمحوا لبافليك بزيارة الكولونيل صاد. انتظر حتى أقروا رحيله إلى براغ، وهو ما حدث بالفعل. المثير أن صاد عرض عليه تدخين الغليون وهو ينظر إليه بفضول كيف يتعامل بافليك مع الغليون، (قال لنفسه: كل هذه الأمور تعلمها من ميشنا!)، ثم تحدث معه على مهمته الخارجية، وعن أهميتها وما ينتظر الكولونيل صاد منها، ليس هو فحسب، بل كل الرفقاء في براغ: هذه المهمة هي من أخطر مهام هذا المكتب، قال وهو يؤكد على كلامه بخبطة بكف يده على سطح المكتب.

عندما هم بافليك يحمل غليونه الذي ما زال مشتعلًا، قال الكولونيل وكأنه أمر عارض:

- أتعرف، أيها الرفيق، أن القبطان الرفيق ميشنا انتحر بالأمس؟ (قالها هو ينظر بفضول إلى ردة فعل بافليك)، نعم، لقد تجاوز الخطوط، تجاوز الحدود التي فصلنا عن العالم الآخر. كان مريضًا بسرطان البنكرياس، وتعامل مع المرض بطريقة شجاعة عندما أدرك أن خدمته للوطن وللثورة قد أشرفت على نهايتها. فلتحيا ذكراه!

تسمر بافليك في مكانه ومعه غليونه الذي ما زال يشتعل.

- الحياة مستمرة، أيها الرفيق.

خاطبه الرفيق الكولونيل بلهجة ودّ. فتح الباب من خلف ظهره المتيبس، ودفع جسده في الدهليز وهو يشعر بوخز في ضلوعه. في الدهليز جاءه صوت الكولونيل يغني أغنية روسية سعيدة من فيلم ستالين المفضل، فرسان كوبا.

في سجن تسايل (المعذرة)، فهو لم يعد يحمل هذا الاسم، غيروا اسم شارع السجن على اسم أول رئيس من الطبقة العاملة: شارع جوتوالد) تواصلت عمليات الإعدام. أحا! (أعتذر للقارئات المتحفظات على اللفظ)، فهم دائماً ليسوا مستعدين بكرسي إعدام، لهذا لا بد أن أعيرهم الكرسي الذي أجلس عليه في الكواليس أتابع الحكاية. ثم رفسوا الكرسي، واهتزت ساقا القتيل، ثم حملوا جثته إلى المحرقة. من المناسب هنا التنويه عن أمر مفاجئ. بينما هم يحرقون الجثة في المحرقة، هرع أحدهم يصرخ، ويقول إن هذه الجثة لا ينبغي أن تحرق، فغداً ستقام جنازة رسمية لها، لكنهم تفاهموا في الأمر. أعدموا سريعاً رجلاً آخر قادماً من سجن تسايل (المعذرة، قادم من سجن جوتوالد)، ودسوا جثته في النعش بدلاً من التي أحرقوها، دسوها بعد أن كسروا قدميه حيث إن النعش لم يكن على مقاس الجثة البديلة، طويلة السيقان). (ثم أعادوا لي الكرسي أخيراً).

أقيمت الجنازة الرسمية للقبطان ميشنا يوم الجمعة. شارك فيها

أفراد مكتب أمن الدولة، وأرسل الرفقاء من براغ مندوبين عنهم.

قال الكولونيل صاد بلهجة احتفالية: رأس بارد، وقلب دافئ.

هذه العبارة الجنائزية التي حبر بها صاد الميت، جاءت على لسان فاليكس دزيرشينسكي، أجل، إنه هو، قائد تشيكا الشهير المهاب. صحيح تمامًا، الشيوعيون، هؤلاء المختارون لا بد أن تكون رؤوسهم باردة، وقلوبهم دافئة. (لن أخبركم بنصها الروسي، وابتحوا عنه في المعجم).

ثم أخذ كل واحد من المعزيين جاروفًا صغيرًا، غرف به بعض التراب، وألقاه على النعش. (كان ترابًا مخصوصًا، أحضروه إلى مدينة برنو من مقابر عند حائط الكرملين أرسلها لهم الرفيق ستالين بنفسه، وهو تراب خصه لمراسم دفن أعضاء أمن الدولة، دلو بالكامل يحتفظون به في قبو مبنى أمن الدولة في شارع لينين)، الوحيد الذي رمى وردة على النعش كان بافليك. وردة صفراء، لا حمراء. من يجيد قراءة حركات الشفاه يعرف أن بافليك يقول همسًا: **إلى أن يفرقنا الموت**. تقدم صاد من بافليك، وربت على كتفه، ولن نعرف أبدًا إن كان ما فعل بسبب خوفه من أن يرمي بافليك نفسه في القبر وراء ميشنا، أم لا. عرف الكولونيل صاد جيدًا أن بافليك يتمتع بموهبة استثنائية، لا مثيل لها عند أي من أفراد أمن الدولة، ونادرًا ما يظهر وسطهم رجل مثله، رجل فريد، جوهرة ثمينة، رغم هذا كله إنسان رقيق القلب أكثر من

اللازم. لهذا قرر أن يعطي مهمة مراقبة أفراد أسرة كرامير إلى شخص آخر على الفور، وأن يسافر بافليك فوراً إلى براغ ليحدد ذهنه بأفكار أخرى.

في اليوم التالي رافق صاد بافليك إلى محطة القطار السريع المتجه إلى براغ. انطلق القطار، من يقرأ لغة الشفاه وهي تهمس يعرف منها أن صاد يتنفس الصعداء.

الجزء الثاني

المهمة

شارع بارتولومسكا في براغ قصير، لكنه شهير. اشتهرت هذه الجملة عن أديب مجهول أقام في الستينيات في هذا الشارع، في شقة صغيرة بالطابق الرابع، يرى من فوق السقوف أبراج قلعة براغ، ومن تحته أفنية سجون الشرطة. فكل البيوت في ذلك الشارع (باستثناء بيتين اثنتين) ملك للشرطة، وخاصة لرجال أمن الدولة، هؤلاء أسكنوا بافليك في واحد منهما، وتحديدًا في نفس العمارة ونفس الشقة الصغيرة في الطابق الرابع، الشقة الصغيرة التي كتب فيها الأديب المجهول رواية فالس الوداع. في هذه الشقة الصغيرة في الطابق الرابع ينتهي أي تعاطف من بافليك مع ذلك الكاتب المجهول. أردت بهذا فقط أن أظهر مدى الترابط المصيري بين كل الأمور.

في هذه الشقة جاء مدرس اللغة الإنجليزية للقاء بافليك (وانصرف بالفعل)، باتريك سبيندر، الإنجليزية لغته الأم، إنجليزي متخصص في علوم اللغة الألمانية، لذلك كان التواصل مع بافليك مدعومًا بلغة مشتركة وهي الألمانية. رافق سيندر دائمًا حارسان، وهو ما لم يزعج بافليك: إنها هي واقع الحال مع مدرسي اللغات الذين علموه، هم -بطريقة أو بأخرى- رجال من الشرطة الجنائية.

كان سبيندر يحاضر في اللغة والأدب الألماني في جامعة كامبريدج، وجاء إلى براغ لأنه كان يعد دراسة عن الأدب الألماني في براغ، لكنه جاء في توقيت سيئ، حيث تجرى محاكمات في

مركز مكافحة التآمر ضد الدولة. اعتبروه منذ الأسبوع الثاني لإقامته عميلًا إمبرياليًا، ونقلوه مكبلًا بالحديد من شقته الفارحة في فندق أوزلاتا ستودنا إلى غرفة صغيرة بعيدة في شارع بارتولومسكا.

كان البروفيسور سبيندر شخصًا ذا قيمة بالفعل، وحسن المعاملة بطريقة لا توصف. فانتشرت أخبار القبض عليه بسرعة البرق في كل أنحاء الكومونويلث، فخاطبت شخوص مرموقة براغ (وموسكو كذلك، فقد اعتقدوا أن القرار في يد الكرملين، وليس في يد قلعة براغ)، ومنها الملكة إليزابيث الثانية، وكانت قد توجت حديثًا، وتدخلوا لصالح باتريك سبيندر. فلا يليق أن يبقى مواطن بريطاني، وعالم مرموق في مجال شرطة دولة شيوعية. ورغم أن أحدًا لم يستجب لهم كانوا على ثقة من أن خطأ غيبًا ما حدث مع السيد سبيندر، وهو ما يعطي شهادة عن الموقف المضطرب المرتبك في تشيكوسلوفاكيا الشيوعية، وأنهم سيصلحون هذا الخطأ قريبًا. سواء اعتذرت براغ أم لم تعتذر عنه لا يهم، المهم هو أن يستطيع البروفيسور مواصلة دراسته العلمية في هدوء، أو ربما سيفضل مغادرة البلد الذي لم يحسن استقباله. لم يتخيل أحد ممن تدخلوا لصالح السيد البروفيسور أنهم ألقوا القبض عليه كي يستخدموه كشاهد إثبات على تأمر سلانسكي وكليمنتيس ضد الدولة مع منظمة إمبريالية، لكنهم سرعان ما اكتشفوا أن هذه الخطوة زائدة؛ لأن الرجلين المتهمين انهارا دون حاجة إلى شهود، وتكسرا بسهولة مثل عود قصب السكر، وذهبا

طواعية إلى حبل المشنقة، لكن البروفيسور سبيندر لم يكن عود قصب، ولم يسمح لهم باستغلاله، لكن ما هو وضع سبيندر الآن كسجين؟ طالما اقتنصوه فلن يفلت من أيديهم بسهولة، فهذا ضد قواعد الاقتناص.

فضل الحارسان الملازمان للبروفيسور البقاء مع السجين في الشقة الصغيرة أثناء حصة اللغة الإنجليزية، جلسا صامتين تمامًا أثناء الحصة. ربما ظنا أن رجل أمن الدولة سيقدم لهم شيئاً ساخناً بالليمون (بعد أن جاء متجمدين من شارع شديد البرودة)، لكنه قدم الشاي للرفيق السجين وحده، دونهما. عندما فهما أن وجودهما في الشقة الصغيرة غير مرحب به فكرا في البقاء على الأقل خلف الباب، وتشجعا في طلب كرسيين لهذا الغرض من رجل أمن الدولة بافليك. أخبرهما أن مكانهما أسفل البيت، عند مدخله، ولا ينصحهما بالجلوس أمام الباب كي لا تتجمد مؤخراتهما على الكراسي أثناء الخدمة. تعامل بافليك مع الحارسين بحدة؛ لأنه يعرف أن كثيراً منهم خدم في السجون أثناء الاحتلال الألماني.

كان بروفيسور سبيندر على قناعة بأن الطالب يجب أن يجرب القراءة بعد المحاضرات الأولى، أو يلقي على الأقل نظرة على الكتب الإنجليزية؛ لذلك أملى على بافليك قائمة طويلة من كتب الأدب الإنجليزي الكلاسيكي والحديث، بعض العناوين ربما يجدها في مكتبة الجامعة في كليمنتينوم. لم تخل القائمة بالطبع

من أسماء مثل ديكينز، ومالفيل، ومن الأدب الحديث هيمنجواي،
وفتسجيرالد، وكذلك الأديب الأقل شهرة، الساحر دافيد جارنيت
وروايته امرأة في جسد ثعلبية. رحب الحارسان المتجمدان من البرد
بمرافقة السجين إلى المكتبة، تجولا طويلاً وسط أرفف الكتب، وملاً
حقيقية صغيرة بالكتب، ثم رافقا السجين إلى ميدان فاتسلاف حيث
أشبعنا شهيتهما وشهية السجين بما لذ وطاب، لهما وله.

رافق البروفيسور هذان الحارسان النبيهان، حسب الاتفاق، يوماً
بعد يوم. وبينما تعلن الساعة السابعة في أجراس براغ من حولهم
في كل مكان وكأنه عزف جماعي دق البروفيسور جرس باب البيت،
ففتح لهم بافليك من شقته، أعد القهوة بينما يصعد الحارسان في
المصعد ومعهما السجين، جاء ومعهما السجين وخبز طازج، ثم
اختفيا على الفور بكل انصياع. وانطلقت محادثة بالألمانية على
الإفطار، مزجها بروفيسور سبيندر ببعض الكلمات الإنجليزية.
تزايد عدد الكلمات الإنجليزية في المحادثة يوماً بعد يوم، وبنهاية
الأسبوع الأول كادت محادثة الصباح تخلو من الكلمات الألمانية.
تعلم بافليك قواعد النحو الإنجليزية ومخزون الكلمات الأساسية
بكل سهولة، التهم اللغة بمعنى الكلمة، وهو ما لا يدهش القارئ،
فهذه هي طبيعة بافليك التي أدهشت البروفيسور سبيندر، كما
أدهشت من قبل البروفيسور ظايليل. قليلون هم الطلبة الموهوبون
أمثاله، مثله كمثل حبات الكمثرى، يكفي هز شجرتها، لتساقط
ثمراتها الطيبة على رؤوسنا. أحب البروفيسور دروس اللغة مع

بافليك، تابعه بسعادة وهو يتشرب كل ما يعطيه له.

كما سبق وقلت، رافق الحارسان البروفيسور يوماً بعد يوم. كان بافليك في أيام غياب البروفيسور يرفع رأسه عن الكتب من وقت لآخر، ويذهب لمشاهدة براغ. رآها في طفولته مرة واحدة مع والديه، وتحديداً مع أمه. حدث هذا إبان الاحتلال الألماني، لكنه الآن يتعجب، انتابه شعور بأن ستارة شاحبة لا تزال تلف هذه المدينة الرائعة نسوا أن يرفعوها عنها، على ما يبدو، بعد أن زال الاحتلال. كان سعيداً عندما عثر على تمثاله محبب للأمير برونسفيك على شاطئ النهر في المدينة القديمة، تمثال برفقة أسد ما زال يتذكره. وصل إلى بيت طواحين البوم بعدما هبط في شارع أوكامب الذي حكى له عنه أمه، تلك المرأة الوطنية المخلصة، أخبرته أن الكاهن والعالم دوبروفسكي، ذلك الأب الأزرق سكن فيه. لم يقدر بافليك بالطبع على التحقق من ساكن هذا البيت في الوقت الراهن، أحد أفراد أسرة فاريخ يقف عند طرف النافذة، يحمل في يده فنجان قهوة، وينظر إلى بافليك وهو يتأمل بيت دوبروفسكي. (يا إلهي، يا له من ترابط مصيري بين كل الأمور، كما سبق وقلت).

رأى البروفيسور سيندر من نافذة شفته الصغيرة (وليس من جانبها) بعدما عاد من جولته في مدينة براغ، رآه وهو يتحرك في رواق السجن. فقد كافؤوه نظير دروس اللغة مع بافليك بنفسه لمدة نصف ساعة في رواق السجن. حرص البروفيسور على

الحفاظ على هذا الامتياز قدر استطاعته، فداوم على هذه الفسحة حتى في هذا البرد وهو ملفوف حتى رقبته بغطاء سرير السجن. شعر بافليك بالأسف عليه، خاصة وهو يعرف نهاية كل مدرسي اللغة الذين علموه.

من ناحية أخرى لم يجبر السيد سبيندر على تناول الغداء يوميًا في زنزانة السجن. كان بافليك يسطحبه في أيام دورس اللغة الإنجليزية للغداء في أفضل مطاعم براغ، لكن ما أفسد هذه الصحبة هو وجود الحارسين خلف ظهريهما. أجلسهما بافليك، رغمًا عنهما، على طاولة مجاورة ليأكلوا شيئًا كي لا يرشقاهما بأعين جوعى.

ينخرط التلميذ مع أستاذه في محادثة على الإفطار وعلى الغداء أيضًا، زاحمت الكلمات الإنجليزية نظيرتها الألمانية، وكذلك التعبيرات الاصطلاحية، والعبارات المسكوكة، وتبدلت طبيعة الحوار من موضوعات تقليدية إلى حديث أكثر حيوية. مع نهاية الأسبوع الثالث صار بافليك يتحدث الإنجليزية مثل أهلها، وتجاوز موضوعات الحديث العادية بلا رجعة، وانخرط في حوار مفتوح مع أستاذه:

- لست حزينا كما ينبغي لشخص حدث معه مثلما حدث معي هنا. يمكنني القول إنني توقعت شيئًا مماثلًا.

- ماذا توقعت؟

- بالطبع لم أتوقع أن أدخل السجن، لكنني توقعت أن براغ،
مدينتي، ستكون مدعاة كآبة، ولا يمكن أن تكون غير هذا
في الواقع.

- هلا شرحت لي ما تقصده بعبارة مدينتي؟

- عرفت براغ جيداً قبل أن أراها. يتعلق الأمر بما جئت إلى
هنا من أجله، باهتمامي بأدباء براغ الألمان. وجدتتها تماماً
كما توقعتها. إنها حقاً كثيفة كما جاءت في رواية أديب
براغ الألماني الفذ، وغريبة، فضلاً عن أنها كوميدية بقدر ما.
حتى ما حدث لي هنا، وتعرضي لملاحقة غير مبررة، جاء
في تلك الرواية. كان لا بد أن أجرب بنفسي كي أفهم ما
كتبه هذا الأديب الفذ، وهو هدفي الأساسي. وحدث بالفعل،
فرحلتني إذاً حققت هدفها. ثم ابتسم، وأضاف: المهم
الآن أن أنجو سالمًا من هذا الموقف. أنت لا تعرف هذا
الأديب لأنه هنا بيرسون نو جراتا⁽⁴⁾. براغ كلها لا تعرف عنه
شيئاً، رغم أن أعين العالم بأسره مصوبة نحو براغ بصفتها
مدينته. أقرأت الكتاب الذي أوصيك بقراءته، Lady into
fox لديفيد جارنيه؟ فيه تتحول المرأة إلى ثعلبة، وكل
هذا التحول مجرد حكاية مسلية، مجرد طرفة عن الثعالب،
لكن أديب براغ هذا كتب قصة عن تحول آخر. قصة تحول
تشغل بال كل من يقرأها. لا تشغل بالك بها لأنك لن تجد

4- شخص غير مرحب به. (المترجم)

هنا هذه النوفيللا الممنوعة عن عملية تحول أليم. كما أنك
لست خبيراً في الدراسات الألمانية، وليس هناك ما يدعوك
إلى الانشغال بهذا الأمر.

نضيف أن هذا الحوار بين بافليك ومدرسه للغة الإنجليزية قد
دار في أحد مقاهي براغ أثناء تناول لحم خنزير بالفطر، ولم يتجاوز
وقت الغداء أبداً. ربما لأنه -لحسن الحظ- كانت هناك موضوعات
أخرى للمناقشة أفضل منه.

وكانت هناك -من ناحية أخرى- موضوعات بغیضة:

قال لونت، مدير رجل أمن الدولة في بارتولومسكا (سنعطيه رتبة
جنرال كي نميز بينه وبين الكولونيل صاد، مدير أمن الدولة في برنو
في شارع لينين):

طلبت أن تتكلم معي.

ثم كرر الجنرال لونت الجملة:

- طلبت أن تتكلم معي، وأنا أيضاً أريد أن أتحدث معك. أخبرني
أنت أولاً بما جئت من أجله.

طغت على الغرفة بساطة العابدين، لا أثر لأي لوحه، لا شيء
تعلق عليه أعين المتحدثين التائهة. كان اسم لونت⁽⁵⁾ على مسمى.

5- الاسم لونت، بالتشبيكية LUNT هو من المصطلحات العسكرية القديمة
الدارجة ومعناه صمام أمان أو فتيل أمان. (المترجم)

أمر آخر أود ذكره: يقع مكتب الجنرال في أعلى طابق في المبنى، الطابق السادس، بإطلالة على السماء التي تتحرك فيها الآن سحب شديدة الغرابة. السحابة التي علقت عليها عينا بافليك الآن تشبه ديكًا رومياً ثائراً، لا يراه الإنسان كثيراً، وبث في نفس بافليك بعض الارتياح.

- تفضل، أيها الرفيق.

أردت أنا أسأل عما حدث مع البروفيسور سيندر. لم أره في فناء السجن منذ عدة أيام. أهو مريض؟ لا أستبعد أن يكون كذلك. فدايماً ما ظهر في الفناء في هذا الطقس البارد لا يرتدي ما يكفي من الملابس.

- لم يعد عندنا الآن. لقد تخلصنا منه. لهذا السبب أردت الحديث معك. نقلناه إلى معبر حدودي، وهناك تسلمه أصحابه الامبرياليون، لكنه حقق الهدف من وجوده هنا. إنه مدرس لغة إنجليزية رائع. وبمجرد أن تصبح أوراقك جاهزة، وبقية الإجراءات سنتخلص منك أنت أيضاً. ستذهب إلى ميونخ كسائح أمريكي.

- متى؟

- كما قلت، بعد أن نعدك بكل ما يلزمك. وقبلها بأيام سنخبرك بما ينتظرك هناك من مهام.

ثم وقف الجنرال، وتوجه ناحية النافذة، لكن متأخراً، فقد اختفى

ذلك الديك الرومي الثائر.

- عندي لك، أيها الرفيق خبر آخر. من برنو. لقد انتحر الرفيق
صاد. فلتحيا ذكراه!

قالها لونت وهو ينظر إلى برج قلعة براغ من النافذة.

- لتحيا ذكراه!

رد بافليك وهو ينتظر أن يقول مدير أمن الدولة شيئاً عن جنازة
رسمية، لكنه اكتفى بهز رأسه، فانصرف بافليك. تأكد وهو في
المصعد من أنه لم يمت منتحراً. شعر بأن انتحاره ثار لما فعله مع
القبطان ميشنا. تراءت أمام عينيه هذه الصورة: عربة صغيرة في
دهليز سجن تسايل سابقاً، ويد تتدلى منه، وأظافر صاد الطويلة
القدرة تحتك بأرضية الدهليز الإسمنتية.

لكن الجنرال لونت لم يقل لبافليك كل شيء، لكن الحقيقة أن
بروفيسور باتريك سبيندر أصيب ببرد في فناء السجن بالفعل. أصيب
بالتهاب رئوي نتيجة إهمال طبي. ساءت حالته وهم يسلمونه على
الحدود إلى ذويه؛ صار غير منتبه إلى ما ألم به، استغرقه حلم نشط،
يأخذونه فيه إلى خارج المدينة، إلى أحد المحاجر، وأحد المرافقين
له هناك يخرج سكين جزارة طويلاً، ويدسه في قلبه، ويديره مرتين.
هلل البروفيسور سبيندر وهو سعيد من أن الأمور دارت تماماً كما
ينبغي: مثلما الكلاب! وكأن هذه السعادة لم تمت كما مات هو.

لم يعد على قيد الحياة، قال واحد من الذين رافقوه على الحدود. وقال أحد الذين وضعوا جسده في النعش: لم أر في حياتي وجهًا سعيدًا مثل وجهه.

هل أنا حقًا ثعلبة؟ سألت نفسي عندما شعرت بفتور كبير أثناء السفر، فتور كبير حقًا، لكن بلا مجيب. إن كنت سافرت إلى سيبيريا مع سرب حيوانات متعددة، وبرفقة إيفان ياكوفلافيتش (الذي تركنا لاحقًا في كراسنويارسك)، فقد سافرت إلى براغ وحدي، لكن في كابينة قطار نوم فاخرة، بها حمام، لكنها مؤصدة عليّ بقفلين، وسلسلة ذهبية تتدلى من السقف، كلما جذبتها يهرع إليّ أحد طاقم خدمة السكة الحديد. لا يوجد في هذا القطار الطويل كله إلا عامل واحد معه مفتاح كابینتي، معلقًا في رقبته، لكن حتى هذا الرجل لا يملك إجابة عن سؤالي: هل أنا حقًا ثعلبة؟ كل ما يفعله هو أنه ينتظر ما سأطلبه على الإفطار، والغداء، والعشاء، أو أي وجبات خفيفة.

شاي فقط، أنت يا من اسمك دوراك من دوراكوف! نوافذي يغطيها الثلج من الخارج، ما حيلتك أيها الكلب؟ طأطأ دوراك رأسه، وأحضر لي الشاي، لكنه أغلق قفلي الباب من ورائه، لكن هذا الكلب فرك سقف العربة، سمعت صوت حكة حذرة متوانية على السقف (وكانه علق في خرائه)، يزيل بلسانه الثلج من على النافذة الصغيرة، فأصاب الثلج لسانه.

لا أرى الآن في الخارج سوى حقول بيضاء، وشريط غابة ريفياً على حدود الفضاء. سافرت إلى كراسنويارسك في سيبيريا على مدى ستة أيام، بينما ينبغي أن يكون الوصول إلى براغ أسرع من هذا. وزعت وقتي بين التعرف على تاريخ هذا البلد التي ينتظرنني بحماس، وبين تأمل حثيث لحياتي الآتية. عدت بذاكرتي إلى معهد إيفان بافلوف. كنت بلا شك أول حيوان يتجاوز حدوداً عليها لائحة تحذيرية تقول: احترس، نظام الإشارات الثاني، أنت تدخله على مسؤوليتك. كنت أول حيوان تجرأ على هذا، الرائد الأول. لو استمرت الحيوانات في هذا المنحى، ولم يوقفها الزعيم لكوّنت مع البشر أسرة واحدة كبيرة.

بدأ الأمر مع الطلاب، وأصبح كلب بريالة شعاراً لهذه المؤسسة. آه، كم أكره الكلاب. أعرف أن دورها أساسي أثناء اصطيد الثعالب، وهي قادرة وسط حشد الكلاب على تمزيق الثعالب إرباً كما مزقت البروليتاريا المنتصرة شعارات القيصر، رغم أنهم تخلصوا منها في المعهد منذ وقت بعيد، ونظفوه من مخلفاتها، وأزالوا آثارها بالفرش، لكنني ما زلت أشم رائحة الكلاب العالقة هناك، من وقت لآخر.

حدثني أحد القائمين على هذا الأمر في المعهد، وقال: قريباً ستختفي هذه الرائحة. لقد اخترناك أنت، الثعلبية، ونحن على ثقة من أننا أحسن الاختيار. لن يستمر الانتقال من حياة الثعالب إلى حياة البشر طويلاً. وعدنا الزعيم بأننا سنجعل منك عضواً

كوموسمولياً في أقرب وقت، لكن الأمر لا يسير بالسرعة التي توقعناها في البداية، لكن الصبر طيب. شغلنا الشاغل الوحيد هنا هو أنت، تحظين برعاية كرايتهم للملك البافاري التעים، لويس الثاني وهو طفل. ذلك الملك الذي أمر ببناء قصر نويشفانشتاين الساحر الذي يستحق أن تزوريه وأنت في بافاريا يوماً.

ولماذا هو ملك تעים؟

مات منتحراً في بحيرة اشتارنبرغ. وربما يجدر بنا أن نعرف كذلك أن الناس تقبل على الانتحار مثلما يقفل النحل على ثمرات الكمثرى المفثوقة ذات العصارة. ما زلت لا تعرفين الكثير عن البشر، وعمما قريب ستكونين واحدة منهم. بالنسبة لي -قال يعترف- لو خيرت بالتأكيد لم أكن لأختار أن أولد إنساناً.

(أضيف -فيما يتعلق بهذا الرجل، الباحث في أكاديمية بافلوف- أنه لم يقدر على اختيار بدايته، ولا حتى نهايته. فلو قرر الزعيم التخلص من موظفي المؤسسة، من كل الأكاديميين كي يفسح المجال أمام موظفين آخرين أقل منهم كفاءة، من أجل العودة إلى الكلاب ولعابها، فسيرسل فرقة كوماندوز من عمال المزارع الجماعية، يحملون مذاري يعلقون عليها الأكاديميين من أمعائهم في أقرب غابة. وأظن -لو سمح لي الزعيم بالكلام بصفتي ثعلبة- أن الزعيم، وجد ضالته في صور القديسين الشهداء رغم أنه أمر بهدم الكنائس الأرثوذكسية والمعابد، وفي رأسه أشكال لا حصر لها من الأيقونات).

قضوا وقتاً طويلاً يعلمونني نطق أصوات البشر. كان أصعبها صوت الرء الذي بقيت طويلاً أنطقه اعتماداً على صوت زمجرة الثعالب. نظر إلى فمي ذلك الرجل الذي جثا أمامي يعلمني نطق حرف الرء يصحح رعشة في طرف لساني، ويقول: برانا، فرانا، مراكي، سترافي، أرماثورا، تراماريا، راتاا، براليس، كرافا، سيرا، موتور، روتور، كوتار. الجدير بالذكر أن اللغة هي بوابة الدخول إلى نظام الإشارات الثاني، البوابة الرئيسة.

يسعدني استرجاع هذه الذكرى؛ كنت في أوقات الفراغ ألعب البولنج مع الأكاديميين في المعهد. هرعت ذات يوم، وضربت الكرة بذيلي الأحمر فأصبت كل الأجسام التسعة.

حين الذكريات، إنه الأسلوب الأمثل لإضاعة الوقت. مررنا بعدها بمدينة مينسك. توقف القطار قليلاً في محطتها، ثم انطلق، لكن النوم هو الطريقة الأسرع على الإطلاق لإضاعة الوقت. غير أنني لم أرغب في النوم! حاولت البقاء متيقظة، وددت أن أتابع عملية التحول التي أمر بها كي لا تفوتني وأنا نائمة، لكن النوم بعدها غلبنى، وثقل رأسي. استيقظت فأجدني فقدت ذيلي. لم أقدر على تخيل حياتي من دونه من قبل، لكن كلما جاء شيء اختفى غيره الكثير. هل أنا الآن سيلفا؟ لقد اخترت الاسم بنفسني، لكن أهذا هو ما تمنيته، لكن من سيسألني لو لم أفعل؟

سحبت السلسلة الذهبية المتدلية من السقف، وطلبت منهم إحضار كأس فودكا؛ فدايماً ما شرب الأكاديميون فودكا بعد لقاء

الزعيم، لكن ولا حتى كأسان ستصلحان ما حدث الآن. ظهرت كومة شعر أحمر مكان ذيلي الرائع، الأسوأ هو الزي الكومسمولي الذي أفرعني وأنا أنظر إليه، وقد ألبسوني إياه أثناء النوم على جسدي الذي لم يعد جسد ثعلبة. انسد أمامي طريق العودة. برانا، فرانا، فراكي، ستراكي، بومبوم نارفراتا، براها، راتاتا...

فتحوا لي باب الكابينة الموصد.

حملت الحقيبة على ظهري، وأمسكت في يدي حقيبة أخرى صغيرة، وغادرت القطار وأنا أتلفت من حولي لأرى إن كان أحد ينتظرني. يبدو أنني سعيدة الحظ وأن لا أحد في انتظاري. أيجوز أن الزعيم لم يرسل حراسه لي؟ هل يثق فيّ إلى هذا الحد؟

إنها المدينة التي لا أعرفها إلا من أشكال بنيت من قطع ثلوج سيبيريا. لن تتاح لي فرصة التعرف عليها من قريب. سأنزل فيها لأيام قليلة، أوصل بعدها طريقي. لا بد من أن أنتبه إلى أن براغ ليست سوى محطة عبور. فجأة أدرك أنني لا أعرف عما أتحدث. ماذا لو كنت أنا نفسي محطة عبور أيضاً؟ كفى! لا وقت عندي لهذه الأفكار.

الناس، على عكس الثعالب، تتحرك في جماعات، وفرق. أتتحرك وسطهم، أصطدم بهم فيدفعونني، لا بد أن أعتاد رائحتهم. حاول الأكاديميون الحد من هذه الرائحة، ورش أجسادهم بما يسمونه دوخي، لكن الزعيم لم يفعل، وفاحت منه رائحة كريهة وكأنه

برميل روث. إنها زخمة الحاكم. كيف هي رائحتي الآن؟ هل يعرف
البشر معنى أن يكونوا بشرًا وهم باستمرار وسط أقرانهم. كفي! لا
وقت عندي لهذه الأفكار أيضًا.

زودني الزعيم بكل ما أحتاج إليه للحياة وسط البشر، وهذا أمر
مفروغ منه. في البداية سأذهب للبحث عن أي فندق أو بنسيون.

كان لا بد أن يعترف جون هارلي أنه لم يتوقع شيئاً كهذا. تخيل أنه
سيعرف بعد مرور سنوات على انتهاء الحرب أن الطيارين الإنجليز
قاموا بتسوية ميونخ بالأرض، لكن المدينة عادت، وانتصبت في بهاء
وروعة. وقف في مارين بلاتس، أمام برج الساعة ومبنى البلدية
يتابع ضجيج العاصمة السعيدة وكأنهم لم يخسروا حرباً، ولم تنته
بهم الحال في مقابر جماعية. ثم فكر أن غالبيتهم ربما سائحون
أجانب، أمريكيون فضوليون مثله، يتفرجون على مدينة هي مسقط
رأس النازية. مد يده على نافورة السمك تصديقاً للخرافات حيث
وقف عندها طابور ممن يؤمنون بها، ثم انتقل بالأوتوبيس إلى شارع
كابوزينر شتراس وهو يعرف أنه اختار هذا الشارع بعناية، قريباً من
مركز المدينة ومن منتزهاتها. عثر على بيت سيكون بيته المفضل
في الأسابيع القادمة، لكنه لم يقف أمامه طويلاً كي لا يلفت إليه
الأنظار: يا كرامير، يا كرامير، أنا أترقب وعلوك بفارغ الصبر، سيكون
عملنا ممعاً ممتعاً.

في النهاية نزل في فندق رويال أوتيل، في مركز المدينة مباشرة. سمع وهو في الاستقبال لغة إنجليزية أمريكية فتوقع وجود كثير من الأمريكيين في المدينة، وسيكون في مقدوره أن ممارسة المحادثة معهم.

ذهب في أول ليلة للبحث عن بار أمريكي يجلس فيه، وظن أنه قد يكون بار شيبريك. لا يبعد كثيرًا عن رويال أوتيل. جلس على كرسي مرتفع عند البار، ثم رفع رأسه، وطلب من نادلة فاتنة أن تشرب معه نخب بداية مهمة ناجحة له في ميونخ.

- هذا غير مسموح لي كنادلة.

- ومتى تنتهي وريدتك؟

- في الثالثة صباحًا.

- ما رأيك في مساء الغد؟ الثامنة مثلًا؟

- حسنًا، لكن ليس هنا.

- أدعوك إلى بار فندق رويال أوتيل.

تحدثت النادلة الإنجليزية وكأنها لغتها الأم، واستجابتها اللينة تبدو أمرًا طبيعيًا في هذا العالم، بغض النظر عن أنه عادة لا يلتقي بامرأة ترفض له طلبًا. غدًا إذًا. انتبه إلى أنه صار مرهقًا اليوم بعد تلك الرحلة الطويلة، ولا رغبة عنده في إطالة اليوم مثل واقٍ ذكري. لم تكن صورة المهاجر كرامير آخر ما خطر بباله

وهو بين النوم واليقظة، بل صورة النادلة في بار شيبريك.

تذكر بافليك منذ البداية أن رئيسه في بارتولومسكا طلب منه ألا يتعجل لقاء كرامير. فهم بالطبع يتوقعون أن أنظار رجال مخبرات ستالين ستكون مصوبة على راديو ليبرتي الجديد، وقد يأتيهم قنص شيوعي؛ لذلك فهم بالطبع متيقظون، متحوطنون. لا بد أن يأتي لقاءه بكرامير صدفة، لكن كيف يدبر صدفة موثوقة؟ يقول الألمان: **Zufall ist Schicksal**⁽⁶⁾. وطالما كانت الفرصة قدرًا، والقدر مجرد صدفة فما العمل مع هذا الالتباس المقلق؟

أيمكنه أن يلتصق بكرامير في حافلة ممتلئة على سبيل الصدفة، ثم يعتذر له، ويصنع من هذا الاعتذار حوارًا عارضًا؟ أيمكنه أن يتصل به صدفة، ويعتذر عن الاتصال الخاطئ العارض، ثم يسأله سريعًا عن شيء يستدعي فضول كرامير؟ أيمكنه أن يرسل خطابًا إلى كرامير، على سبيل الصدفة، خطابًا لا يخصه، وينتظر أن يعيد كرامير الخطاب إلى صاحبه بعد أن أثار محتوى الرسالة الغامض فضوله؟

كلها أفكار غبية، مستوحاة من حكايات قديمة. الصدف لا يمكن تدبرها على هذا النحو الغبي. كان بافليك واثقًا من هذا. السبيل الوحيد هو: أن يترك الصدفة تختمر. وينتظر أن تأتي من تلقاء نفسها. وسيكتفي بالدوران حول كرامير.

6- الفرصة قدر. (المترجم)

كانت صارمة مثل مطرقة الجزارين. لماذا فكر في هذه المقاربة الغبية مع هذه النادلة؟ لو كان ممن يؤمنون بالخرافات لاعتبرها أمانة تحذير. رفع رأسه في دهشة، وسأل نفسه: أهي أكثر سحرًا مما كانت مساء أمس؟

نحن الآن في بار رويال أوتيل:

- هلا ساعدتني على اختيار أفضل نبيذ هنا؟ في نخب لقائنا!
 - المعذرة، لكننا بالأمس شربنا فقط في نخب مهمة ناجحة لك في ميونخ.
 - أعتبر أن لقائي بك اليوم هو أنجح مهمة على الإطلاق.
 - رغم تأدبك هذا، أفضل أن تخبرني عن مهمتك الحقيقية.
- بدل بافليك دفة الحديث في تردد. أهي صدفة بحتة أن تذكرت كلامه عن مهمة ما وتسأله عنها الآن؟ ضاق ذرعًا بقضية الصدفة التي شغلته اليوم. وهو ما دفعه إلى إيحاء عفوية: وضع كفه على رقبته، فتذكرت سيلفا إيحاءة الزعيم الشهيرة التي دائمًا ما سلبت أحدهم حياته.

هنا يتدخل الراوي في الحدث. لا تتابعوا بقية حديث المساء بينهما في بار فندق رويال أوتيل لأن أمورًا معتادة طيبة سيطرت علي بقية الحديث، على عكس البداية الملتبسة، وسؤال سيلفا الذي أربك بافليك.

حام بافليك بحذر حول كرامير، وتردد على الحديقة الإنجليزية⁽⁷⁾ كي يدور حول راديو ليبرتي الوليد. دوران حذر طول الوقت (حذر بقدر دوران القمر حول الأرض كي لا يستفزها، ولا يغضبها، ولا يستدعي برنامج أبولو قبل مواعده) كي لا يلفت إليه الانتباه. ثم حدث أمر أخرجه عن مساره. التصق أحدهم به من الخلف بينما هو عائد من الحديقة الإنجليزية في حافلة مزدحمة، واعتذر له على الفور من وراء كتفه، وقال له بعد برهة: أود أن أتحدث معك. كانت بلكنة أهل براغ.

لم يدعه بافليك للشراب في بار رويال أوتيل، بل في واحد من بارات ميونخ العادية: إن أردت بالطبع الجلوس في حانة شعبية، حانة لكل الناس.

- أرسلك إذاً المدير في بارتولومسكا؟

- جئت إلى هنا قبلك بقليل كي أكون في انتظارك، أمهد لك الأجواء، كما يقولون. دوري هو أن أكون في خدمتك، مساعدًا وداعمًا لك، باختصار خادمًا أمينًا. أعتذر كثيرًا من أني لم أتصل بك قبل اليوم.

ارتاع بافليك. لم ينتبه إطلاقًا إلى وجود أحد يراقبه منذ وصوله إلى هنا، وينظر إليه من وراء ظهره. هذا ذنب في مهنته لا يغتفر،

7- أكبر منتزه عام في مدينة ميونخ، وأحد أكبر حدائق العالم، أكبر حتى من الهايدبارك، أو سنترال بارك. (المترجم)

فبينما هو يتربص بكرامير، هناك من يتربص به هو نفسه، وهو هذا الخادم؛ فلم يبق أمامه إلا أن يضع قناعاً جليدياً على وجهه.

- لكنني لست في حاجة إلى مساعد، ولا خادم.
- أعتذر لك للمرة الثالثة، وبشدة من أني لم أعلن لك عن نفسي قبل اليوم. انتظرت أن تبدأ مهمتك بالفعل كي أعلن لك عن نفسي. أنت حتى الآن تتعامل مع كرامير من بعيد، وتتعرف على دورك كسائح أمريكي في مدينة ألمانية كبيرة، لذلك لم أرغب في إزعاجك، وخاصة أنك شرعت في beautiful love story.

- هذا قول مرفوض، وفاض الكيل. هذا المساعد أيضاً وقح، وربما يسخر منه كذلك. انتبه بافليك إلى أنه يتحرك في المدينة بتهاون، دون المستوى الذي يتوقعونه منه، ومثل هذا التهاون يستحق العقوبة، لكن لا وقت للأسف. إنه وقت العمل!

- مساعدي العزيز، سأطلب لك الآن كباب حلة، بنكهة هذه المدينة. فيما يتعلق بكياب الحلة فإن ميونخ تباري فيينا وبودابست فيه. سترى بنفسك. كباب الحلة هنا ليس حريفاً مثلما في المجر، ولا ناعماً مثل فيينا، لكنك مقبل على تجربة فريدة بكل تأكيد. أضمن لك هذا، وخاصة لو شربت معه بيرة ميونخ.

رفع بافليك يده، وفرق بأصابعه مثلما يفعل الأمريكيون، طلب كباب حلة، ثم وقف، وقبل أن ينصرف تقدم من مساعده من الخلف، وضع يده بخفة على كتفه، وقال له من وراء ظهره: الآن أعتذر لك بشدة، لا بد أن أعاود الاهتمام بأموري العاطفية، لكن لا داعي للعجلة، كل في هدوء فلن أحتاج إليك الآن، بالهنا والشفاء!

لم يطلب سيارة تاكسي لأن القنصلية التشيكوسلوفاكية قريبة، ويفضل التفكير أثناء المشي. إنه الآن في حاجة إلى أن يدير ماكينته المعرفية بأقصى طاقة كي تدور وتضرب بقوة كما فعلت دومًا أيام عمله كخراط. لا ننسى أن القبطان ميشنا كان على قناعة بأن بافليك خبير في عمل الدسائس، وكأنه اختاره من رواية فرنسية عن النبلاء. كانت تلك كفاءة، أو لنقل ملكة طبيعية، موهبة فذة قدرها رؤساؤه في العمل أفضل تقدير. الآن وافته الفرصة كي يجعل هذه الموهبة تعمل لصالحه. وقبل أن يصل إلى القنصلية عرف كيف يغرق مساعده.

يقف الراوي نفسه، أقصد أنا، خلفه، و(أ) يميل على كتفه لـ(أ) يستمع إليه وهو يتحدث هاتفيًا في قنصلية تشيكوسلوفاكيا، ويرسل أخبارًا مشفرة إلى براغ، إلى سكرتارية مديره في بارتولومسكا، الجنرال لونت. كلا، لن أرهق نفسي الآن لأفك شفرتها، يكفي أن نعرف أن بافليك قد لف حبل القنب حول رقبة مساعده. ليس في حاجة إلى أي مساعدين، وخاصة أمثال هؤلاء الذين يعملون لصالح الطرفين، عملاء مزدوجون كما نعتهم أمام

لونت الآن. لقد وفيت بوعدتي، يا مساعدي العزيز، تنتظر تجربة فريدة.

تسأله سيلفا:

- كيف كان يومك؟

- آه، طوال اليوم لا أفكر إلا في لقاءك.

صار الحديث بينهما دونما ألقاب، واختارا أفضل الأماكن في البار، الأماكن التي تطل على نافورة السمك، حيث يأتيها السائحون حتى في المساء، وكذلك سكان المدينة، يخلعون أحذيتهم، ويللمون بنظولوناتهم، ثم ينزلون إلى النافورة فقط كي يضعوا أيديهم على أسماك برونزية كبيرة، مثبتة على عمود وسط النافورة، يضعونها على فم الأسماك مباشرة.

- لماذا يفعلون هذا؟

- لا أعرف، لكنني خلعت حذائي في أول يوم لي في ميونخ مثلهم، ولملمت بنظولوني. فم السمكة مرتفع كثيراً، كما ترى، لكن هناك درجات سلم تحت الماء لحالات الطوارئ.

- لاروشي أو موان، نبيل فاخر من منطقة لوار.

ثمل بافليك اليوم، لذلك أكملنا كأسيهما، ثم أكلا الباذنجان البروفنسالي، استقلا بعدها المصعد معاً. فاجأ سيلفا بأن ضغط على زر الطابق السادس. كانت تنتظر أن يرافقها حتى الطابق

الأرضي (البار في الطابق الأول)، ثم يطلب لها سيارة أجرة من أمام الفندق.

- لم أخطئ الزر، أنت ذاهبة لرؤية الفراشات التي أجمعها.

لم تعترض سيلفا. فهي لا تعرف التعبير المجازي رؤية الفراشات، ولم تجد أي أثر لهذا التعبير في معهد إيفان بافلوف: فلا أثر هناك لأي امرأة، وإن كان هناك مثليون وسطهم فهؤلاء لا يعرضون أي فراشات على أحد. توقعت أن هذا الأمريكي بالفعل يجمع الفراشات، وأنها سترها مسحوفة تحت الزجاج، لكنها أخطأت التقدير، لكن بعد فوات الأوان. ما حدث لاحقاً وقع تحت إمرة مورفينات العقل، ولم تجد سبباً للاعتراض.

لم يندهش بافليك من أن ما بين فخديها أحمر، ما أدهشه حقاً هو أنه كزهرة حمراء فاتنة. اندهش كذلك من أنها عذراء. وشيء آخر: لأول مرة في حياته يشعر أنه جرب شيئاً مختلفاً، أمراً لا يجد له وصفاً. لا يتذكر من وسط كل النساء اللاتي أقام معهن علاقة حتى الآن سوى لبوة مكتب البريد، وامرأة أخرى وهي عاهرة منتجعات قسطنطين، لكنه هنا يرى شيئاً كان يفضل أن يتجنبه. كلا، بتعبير آخر: لم يقدر على تجنبه!

حدث ما حدث، هذا ما فهمته لاحقاً. لو أنني أملك دفتر يوميات لكتبت فيه الآتي: فرجي الأحمر، هذه الثغرة التي لم أعرفها أي

اهتمام أثناء حياتي كثعلبة، بل احتقرتها، غمرت الآن هذا السائح الأمريكي بشعور لطيف، وهذا أمر غريب، أقصد شديد الغرابة، وممتع في الوقت نفسه. ثمة أمور جيدة وكريهة في الوقت نفسه. هذا ما تعلمته يوماً من ديمتري فاسيليفيتس في معهد إيفان بافلوف. حتى نيقولاي ستيبانوفيتس الذي طالما دعاني إلى تعلم اللاتينية كذلك، حكى لي حكاية هوراس⁽⁸⁾ *Vestigia terrent* (علامات تحذيرية): رفض الثعلب مقابلة الأسد عندما رأى أن كل الدلالات تأخذه إلى قفص لا رجعة منه، لكن السائح الأمريكي عندما أخذني إلى عرينه تركني أخرج منه بكل بساطة.

في الصباح اتصلوا من القنصلية: لحظة، سأوصلك ببراغ. كان بالطبع ينتظر هذه المكالمة وإن لم يتعجلها. عرف بعدما فك رموزها أنهم أخذوا تحذيره بكل جدية: ألغوا على الفور مهمة المساعد، وتعاملوا معه كما تتعاملون مع أي عميل مزدوج. وضع بافليك السماعة، ولم يهتم بعدها بالأمر. ما يشغله الآن أمر آخر. هل يشغله فعلاً؟ ألا توجد كلمة أخرى غير هذه الكلمة؟

عينا سيلفا استثنائيتان، لم ينظر إلى مثلهما من قبل. الآن فقط ينتبه إلى أن وجهها الساحر من الجانب يشبه وجه الثعالب إلى حد بعيد.

8- هوراس (عاش في القرن الثامن قبل الميلاد) كان شاعراً غنائياً وناقداً أدبياً لاتينياً من رومانيا القديمة في زمن القيصر أغسطس. (المترجم)

اتصال آخر من براغ. يحاولون إرسال مساعد بديل له في أسرع وقت، لكن لا أحد ممن تواصلوا معهم أظهر قدرته على أداء المهمة. لا أحد، على ما يبدو، يرغب في العمل مع بافليك؛ لذلك سيستغرق الأمر بعض الوقت.

عاود بافليك رسالته المشفرة: أكرر، لا أريد أي مساعد. سأقوم بكل شيء وحدي. ثم وضع السماعة بذهن شارد. أهو فعلاً سحر الثعالب؟

أحزني كثيراً أن براغ، المدينة التي رأيتها لأول مرة مبنية من قطع الثلج بعيداً في سيبيريا، صارت مجرد محطة ترانزيت. وددت البقاء فيها مدة أطول، أتجول وسط أهلها دون خوف من أن يدوس أحد ذيلي الأحمر الذي لا أعرف أين اختفى. كل شيء في براغ، مقارنة بتروجراد الأصلية أو موسكو، أشد ألفة وحرناً، لكن لا مفر من أن أوصل رحلتي على الفور، بعد أن أشتري شيئاً غير ملابس الكومسوملية هذه. قضيت وقتاً طويلاً في الاختيار من أجل إطالة الوقت، انتظرتني المرايا في أحد المتاجر بكل صبر. هناك عرضوا عليّ ملابس استبدلت بها الزي الكومسومولي. كتحلّة لم تبهرني المرايا أبداً، لكني الآن دخلت إلى عالم تلعب فيه المرايا دوراً كبيراً، نعم، تتحكم في الناس بصورة مطلقة. بقيت أتأرجح أمامها، وشعرت بالأسف من اختفاء ذيلي الأصفر، مصدر فخري الذي كنت سأحمله الآن بين إبهامي وسبابتي وإصبعي

الأوسط، وأضعه فوق صدري أو ثديي الصغير. رقصت أمام المرأة رقصة المرايا، كما يقول البشر. انتبهت وأنا أقف أمامها أنهم حرموني من ذيلي، حرموني من شيء هو لي. (قال ليونيد بافلوفيتش ذات يوم في هدوء إن الزعيم سيقطع ذيولنا جميعاً، سيخصينا. ضحكت رغم أنني لم أفهم ما يعنيه، تخيلت ذيلاً أشعث بديئاً يَتَتَّأ في مؤخرة ليونيد بافلوفيتش: علام تضحكين أيتها الثعلبة الغبية؟ عندما تظهرين في جسد إنسان ستعرفين معنى أن تنقلب عليك الطاولة).

في نهاية المطاف كان لا بد أن أطفئ زر الرقص أمام المرايا. اخترت شيئاً لألبسه، وشيئاً آخر أضعه في حقيبة يدي. إلى اللقاء يا براغ، إلى لقاء قريب.

مرة أخرى فضلت السفر بالقطار بدلاً من الطائرة.

على عكس براغ التي كانت كثيبة كشأن كل ما هو سلافي، مدن ألمانيا التي مررت بها حتى الآن فقط حزينة. علمني أليكساي فلاديميروفيتش أيضاً في أكاديمية إيفان، وقال لي: لا بد أن تعتادي التفرقة بين الكآبة والحزن، وبين السعادة والمرح، يجب أن تتعلمي الفروق بين الكلمات، فعالم البشر يقوم ويقعد حسب الكلمات. ما إن سجلت هذا في مخك الثعلبي الصغير ستكونين من الفائزين. المهمة التي كلفني بها الزعيم على صلة بالكلمات. أغضب الزعيم ونستون تشرشل لمجرد أن نطق بفمه القذر عدة كلمات مهينة ووقحة، فأهدر الزعيم دمه. وكنت أنا ذلك الطوربيد

الذي ألقاه عليه الزعيم. صرت أتمتع بقدرات البشر والحيوان معاً، خسة البشر ودهاء الثعالب وحدها، تشكيلة قاتلة مستعدة كي تحول تشرشل إلى كرات صغيرة سميثة كما يتمنى.

كانت ميونخ هي الأخرى مجرد محطة عبور. كان عليّ أن أعتاد فيها التواصل مع البشر، وعلى رائحتهم. مهمتي الآن هو السير في طريق قدر يقودني إلى رقبة رئيس وزراء إنجلترا.

كان في مقدوري بالطبع أن أتسكع في ميونخ بلا هدف. لم أجبر على الانخراط في أي عملية إنتاجية كحال غالبية أفراد النظم الرأسمالية. فقد زودني الزعيم بوسائل يكفيني أن أمد عليها يدي، لهذا كنت مبعوثاً مستقلاً من عالم العدالة المطلقة. رغم هذا رأيت أن عملي كنادلة في بار قريب من مركز المدينة سيساعدني في هذا الاعتياد، والاتصال بالمجتمع البشري. لم يكن صعباً الحصول عليه. اتسق سحر الثعالب هنا مع جمال الأنثى. قبلوني في العمل فوراً، كنت لهم أداة تسويقية فريدة، وجلب لهم مظهري المحبب الزبائن. صرت في البار على علاقة يومية وثيقة بهم، أنظر في عيني مختلف فئات الجنس البشري من قريب. اتكؤوا على منضدة البار، وصوبت وجوههم نحوي، يحدقون بدرجة قد تجعلني أمثل لطبيعة الثعالب التي لم تنطفئ في نفسي بعد، وأجتز أنوفهم، الكبيرة والصغيرة من على تلك الوجوه، لكنني أعرف جيداً أنني لن أفعل أيّاً من هذا، بالعكس، لا بد أن أتعلم التعامل مع زبائن البار بلامبالاة وبرود. حسبت أنني

سأبقى ثلاثة أيام أو أربعة، ثم أذهب بعدها إلى هامبورج، هناك سأعثر على سفينة لطيفة تأخذني إلى برايتون، محطة الترانزيت التالية، لكن حدث في اليوم الثالث أمر أفسد كل ما خططت له. هذا السائح الأمريكي، إما أنه غير الآخرين، لا يصدر رائحة كريهة مثلهم، أو فيه شيء يغطي على رائحتهم.

بقيت في البداية محبوسة في منطقة لا يعرف صورتني النهائية أحد ممن أسهموا في استثناسي، لو كان إيفان بافلوف على قيد الحياة لارتعب، ولتراجع من عند الحدود التي لا يعرف ما ينتظره خلفها، لكن صناعي واصلوا التقدم، وكانوا مجبرين، فلولا هذا لحول الزعيم المعهد إلى متحف لكلاّب يسيل لعابها، مزار سيّاحي لكل الأغبياء المطلوبين الذين يتدفقون من الغرب. هذا على الأقل ما أخبرهم به. الزعيم إذاً دفعهم على الحائط، وكان لا بد أن يواصلوا العمل، أن يقوموا بعمل ثوري. وهذا العمل هو أنا.

أكثر من تعاطف معي منهم كان أنتون، شعر بأنه أبي وأمي، وعمي، خالي، وشقيقي وشقيقتي، وكل أعضاء الأسرة البشرية الكبيرة بعد أن عجزت عن التعرف على أسرتي من فصيلة الذئاب، لكنني احتفظت بعادات الثعالب لوقت طويل. كنت بمثابة نموذج رائع للثعالب، كما أخبرني أنتون، وستكون خسارة أن يتحول كائن من فصيلة الثعالب الفخمة إلى فصيلة أخرى كما يحدث الآن، فصيلة لا تفخر بها الكرة الأرضية بكل تأكيد. كان يقصد بالطبع فصيلة البشر، كذلك أخبرني أن أفضل ما في البشر هو

قدرتهم على المزاح، لكن حتى هذا لا يقدر عليه إلا بعضهم.

تعلمت اللغات التي ستكون وسيلة لتشكيل واستقرار نظام الإشارة الثاني في جسدي. كإفاني أتتون على أدائي اللغوي ببعض العناصر الطفولية الصبائية. بعدما أجدت اللغة الملايوية، على سبيل المثال، أحضر لي صبيًا صغيرًا أسميته بودوليناك، وكنت أحمله على ذيلي، يشهق من الضحك كل من في محراب العلم الجليل هذا كلما مررت بدهاليزه المهيبه.

هذا السائح الأمريكي لم يتمتع بلكنة أمريكية كما ينبغي، أنا قادرة على تمييز هذا الأمر، وأظن أن أصله إنجليزي، لكن ربما قضى طفولته في المملكة المتحدة، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة لاحقًا. الاحتمالات كثيرة بالطبع. لكن وراذ أيضًا أنني أخطأت في التفريق بين اللكنة الإنجليزية في البلدين. وبحكم أنني خبيرة في علوم اللغة أعرف أن اللغة كائن حي، وأن الرؤية الأكاديمية التي تعلمتها في المعهد تبقى رؤية أكاديمية بحتة، لكن هناك احتمال كبير أنني سأستوثق حقيقة هذا الأمر مع الوقت. فقد تزايدت لقاءاتي بالسائح الأمريكي، ولو أن عندي دفتر يوميات لظهرت فيه تسجيلات من هذا النوع: بالأمس مد يده، ووضعها على يدي. كيف هي حاله لو عرف أنها كانت أقدام ثعلبة منذ وقت قريب، وأن بها بقايا طبيعة الثعالب.

قال اليوم جون إنه واثق إلى حد بعيد بأن هناك شيئًا يجمعنا في أعماقنا، وأنا من نفس الفصيلة. ليته يعرف عمّ يتحدث؟!

كان الزعيم راضياً عني، وتنفس الجميع الصعداء. ولو لم يكن راضياً لأمر بإغلاق المعهد، وحوله إلى مصنع، أو إلى مبنى شيوعي ضخم في خليج قناة فولجا دون، أو مبنى لمحطة طاقة كهرومائية مثل غيرها من المحطات التي انتشرت هناك بكثافة. لم يتوقعوا أن أحوالهم ستسوء، وأنهم بعد رحيلي سيصبحون في خبر كان.

رأيت الدموع تتساقط من أعينهم جميعاً عندما تأكدوا من أن الزعيم سيأخذني من هناك في أقرب وقت، وصعب عليهم فراقي. كنت مصدر سعادتهم، تميمتهم، وشمسهم. جاء أنتون بودولينك مجدداً، لكن فجأة عز عليّ حملهُ على ذيلي. وسقط من عليه في منحني الدهليز حاد الزاوية، فكُدم وصرخ بقوة مثل صفارة إنذار قبيل قصف مدفعي.

فجأة تحول الضحك إلى حزن. أرادوا جميعاً -وقت رحيلي- أن يجتروا للذكرى خصلة شعر من على جلدي، فكاد كل شعري يختفي، لكن ماذا سأجتز منكم؟ قال أنتون: املي زجاجة بدموعنا، ولن يصيبك شيء في هذا العالم السيئ طالما احتفظت بها. آه، ويلكم أيها الأكاديميون... ستعلقون من أحشائكم على الشجر، وستتدلى من جيوبكم خصلات شعري التي قصصتموها.

لو أن عندي دفتر يوميات لقلت فيه: حاول اليوم أمراً دون أن يعرف أن خلف شفتيّ العذبتين أسناناً حادة متأهبة، لكنني تحملت الأمر. كم أود أن أعرف: وماذا بعد؟ لم أحصل في المؤسسة على

أدنى تدريب على هذه المسألة. لم يخبروني.

حدث ما كان لا بد أن يحدث، حتى زجاجة دموع الأكاديميين التي خبأتها في حقيبتني لم تنفعي. لو أن عندي دفتر يوميات لكتبت فيه الآن: فرجي الأصفر الذي لم أعطه أي اهتمام وأنا ثعلبة، وعاملته باحتقار شديد، منح السائح الأمريكي الآن شيئاً ما... (هنا يتدخل الراوي: كفاك! تحدثت في هذا الأمر من قبل، ونود الآن استكمال أسطورة هوراس. هيا! أيتها الثعلبة، عفواً، يا سيلفا!).

في اليوم التالي جاءني زيارة في شقتي الصغيرة فوق بار شيبريك. الزعيم إذاً لا يثق فيّ، فأرسل من يراقبني.

- أظن أنني سأرسل شكوى في حقك. أنت هنا في مهمة، في مأمورية! أوكل الزعيم إليك مهمة كبيرة، وبدلاً من إتمامها تفعلين أموراً لا تليق بالثعالب.

حملته قدماه إلى عريني، ولم يخرج عليهما.

أخبرت جون بما حدث، فساعدني في إلقاء جثته في حاوية على حدود مدينة ميونخ. قبلها لفته في سجادة كي لا يرى جون أنني نهشت رقبة هذا الرقيب. أخبرته أنه هاجمني في الشقة، وأراد اغتصابي قطعته بالمقص، لكنني قررت أن الوقت قد حان للمصارحة مع جون. فتوجهنا من عند الحاوية، واستقلنا المصعد إلى الطابق السادس في فندق رويال أوتيل.

احتفظ جون بزجاجة كحول ثقيل، فشربنا حتى الثمالة، وتساقط الكلام من افواهنا مثلما يتساقط زغب غطاء موبر. اعترف كل منا للآخر بالمهمة الأساسية، وإلا ما انتهينا، لكني تلكأت في الكلام وترددت، فلم أخبره بأهم ما في مهمتي، رغم نيتي في أن أخبره بكل شيء.

- اسمي ليس جون، اسمي بافليك، وأنا أيضاً تخلصت ممن يراقبني، وأضاف: كل منا تعرض لمشاكل مشابهة، لكنهم سيرسلون غيرهم بعد حين، وهؤلاء سيكونون أشد قسوة. لا بد أن نختفي، لا بد أن نهرب.

(ينبها الآن الراوي: انظروا! لقد بدل لقاؤهما دفعة حياتهما فجأة. يمكنني القول إنه قلب حياتهما رأساً على عقب، لكن لو نظرنا بعيداً في تاريخ البشرية، في بعدها الأسطوري سنرى أن لقاءات الغرام مع الحيوانات دائماً ما كانت مصيرية. فجأة توقف بافليك عن الاهتمام بكرامير، وألقت سيلفا بمهمة تشرشل عرض الحائط. واتخذت مهمتهما منذ الآن منحى آخر تماماً).

على عكس ميونخ، انتشرت في أرجاء هامبورج آثار قذائف الطائرات، والقنابل الحارقة، آثار عملية عمورة الرهيبة، كما أسماها الحلفاء، لكن ظل الميناء يعمل.

عثروا في باخرة إبريس العابرة للمحيط مقصورة مريحة، تأكيداً

من أن لا أحد على متنها يتربص بهما من بدلاء المتربصين، ثم أبحرت الباخرة. لم يشعر بالأمان إلا بعد أن صارت الباخرة في عرض المحيط. بعدها شعرا بارتياح نسبي. ظل بينهما شيء أساسي عالق رغم التقارب الذي حدث بينهما في جناح بافليك في الفندق. وودت لو أخبرته، وقالت له: أتعرف! أنا في الواقع ثعلبة!

رحلة طويلة على متن الباخرة، أربعة عشر يومًا، وثلاث عشرة ليالٍ، فرصة للبوح بما في صدورهما، وما ينتظرهما بعدها. شروق في عرض البحر، إطلالة الصباح، خيوط النهار، دعونا نقول إنه من النادر أن يظهر شفق البحر؛ لأن الشفق عادة ما يختفي خلف ستارة من السحب السوداء، لكن صباح اليوم السادس جاء ساحرًا على غير العادة.

ما زال لديهما كثير من الوسائل التي تمكنهما من العيش عيشة الملوك. كان صباح اليوم السادس بمثابة نموذج للإفطار الإنجليزي الحق، إفطار أعدده لهما النادل على طاولة مثبتة في مقدمة الباخرة. جلسا بينما بافليك يصفق، وتظهر على سطح الماء سمكة، وكأنها جاءت بإشارة منه، سمكة مكسوة بحمرة البكور وكأنه كاتشب، ثم تلطم جسدها بسطح الماء.

- أرايت كيف استجابت؟ نجح الأمر، وسننجم نحن أيضًا هنا، وراء المحيط. أمريكا بلد شاسع جدًا على أن يصل إلينا أي من المتربصين البدلاء الذين سيرسلونهم في أثرنا بكل تأكيد.

- حسنًا، يا بافليك، لكن ماذا سنفعل بعد أن نستنفد كل وسائلنا التي زدونا بها لمحاربة الإمبريالية القذرة؟
- أنا لست خائفًا، بل على العكس، سيتحقق حلمي القديم. دائمًا ما حلمت أن أكون نجارًا، هذا حلمي الذي طالما حلمت به، أحمله في مكنون نفسي التي أفتحها الآن. لا يقتصر حلمي على أطباق الغسيل، والخزانات، والطاولات، والمقاعد. أتمنى أن أصنع مراكب شراعية، وبيوتًا خشبية. يكفيني أن نستقر في مكان ما يزرخ بالأخشاب، وقريب من غابة كبيرة.

تنهدت سيلفا:

- قريب من غابة كبيرة. أنا أيضًا أرغب في هذا، لكنها، يا بافليك، أفكار استدعاها مشهد حمرة الصباح في البحر. الجمال يحول دون قدرتنا على التفكير المنطقي. الجمال مجرد وهم، ستارة، خداع.
- من أين لك بهذه الأفكار؟ من أين جاءتك؟ ما هذه النظرة القبيحة إلى العالم؟
- من أين؟ من حكمة البشر، من فلاسفة البشر عندكم، من فولتير، وهوم، وشوبنهاور، نيتشه، وهايدجار، وويتجنشتاين... قرأت عنهم الكثير.
- ماذا تقولين؟ لماذا عندنا؟ ألسنت من هذا الفصيل البشري؟

- بالطبع أنا واحدة منه. وإلى من أنتمي إن لم أكن منهم؟

كانت جدتي تقول إن الحلم مجرد حلم، تستيقظين بعده في وضوح النهار. كان ل فرويد رأي مختلف، لكن دعنا من هذا الأمر الآن. الحقيقة هي أن حلم بافليك بالأخشاب، وقدرته، كرجل يتميز بموهبة لم تظهر بعد، وقدرته على احتواء الحماس الفاتن، كان مجرد حلم، سيستيقظ منه على واقع كرهه لا قبل له به. عمل خراطاً في السابق، وكان بارعاً متفوقاً في صناعة الحديد، لكن الحديد والخشب عالمان مختلفان. حلم النجار الذي تبناه يدفعه إلى أن يوجه نظريه إلى مكان آخر. دعونا لا نستبق الأحداث التالية التي ستأتينا واحداً تلو الآخر. ولنعد أولاً إلى الوراء قليلاً: وصل بافليك مع سليفيا إلى أمريكا بسلام.

ما زالوا يعيشان على الوسائل التي بقيت لدهما، كل مؤهل لمهمته الكبيرة. عندما اختارا كاليفورنيا بعد تردد، أرض الغابات والأخشاب، طافا فيها قبل أن يعثرا على مدينة موري الصغيرة، تبعد نحو مئتي كيلومتر عن ميل فالي.

موري، مدينة قريبة من شاطئ المحيط الهادئ، مدينة ساحرة، تلامس غابات الحديقة القومية الضخمة التي لم تخترقها حتى الآن مدقات السائحين طويلاً وعرضاً، ولا مسالك، أو شوارع أو طرق سيارات. في المدينة مصنع ماسيفيلد الصغير لصناعة أثاث منازل العائلات، وفيه بنسيون لطيف بألوان زاهية مخصص للعاملين.

تولى بإفليك العمل على خط الإنتاج، وكلف فقط بوضع ألواح الخشب المسواة بأطوال سليمة. أكدت له رائحة الخشب المحببة المختلطة بالصمغ، ونشارة الخشب يومًا بعد يوم أنه على الطريق الصحيح، وأن الأمر يتطلب منه قليلًا من الصبر.

خطرت له في أوقات فراغه فكرة حاول تطبيقها. علم تمامًا أن الخزنة الأنيقة الحديثة لها مثالبها، حسب ظنه، وأنه عليه ألا ينهر بأي شيء، خاصة وهي أول تجربة له في وظيفة رئيس طهاة في هذا المجال. فك الخزنة، ثم أعاد تجميعها على نحو أفضل، ثمنت سيلفا ما فعله بأنها صارت قطعة أثاث رائعة.

نستخلص من هذا أن الثعالب لا تفقه شيئًا في الأثاث، لكنني أدين لكم بالقول إن بإفليك ما زال لا يعرف مع من يتعامل؛ لأن سيلفا كادت تعترف له بالحقيقة وهما على متن الباخرة إيريس، ثم سرعان ما تراجع بمهارة. لم تكن متأكدة بعد من تقبل بإفليك لسرها الثعلبي.

لنعد مجددًا إلى قطعة الأثاث التي يمكننا القول إن بإفليك اخترعها. لم يفتنه أن شيئًا ما، ما زال ينقصها، لكنها تفاصيل المهنة التي يمكن أن يتولاها أحد عمال المصنع العارفين بفنون المهنة. لا يدخل الغابة من يخافها، كما يقول المثل؛ لذلك ذهب بقطعة الأثاث إلى مدير المصنع، فعلق قائلاً:

لقد صنعت وحشًا بشعًا. فكرة غير ناضجة نفذتها بشاعة. لم

أر شيئاً بهذا الغباء من قبل. وإن لم تعترف أنت نفسك بهذا فأنت غبي بكل تأكيد.

لم يتحمل بافليك، ونطق كلمة روسية واحدة. (اللغة الروسية لا تباريها لغة أخرى في ألفاظ السباب). بالطبع لم يفهم المدير معنى الكلمة، رغم هذا شعر بقوتها الجبارة التي كادت تعصف به. بصق ثم انصرف، لكن الكلمة صادفت شاهداً عارضاً، عاملاً كان يمر صدفة يحمل سلماً.

اتكأ العامل على الحائط، وانفجر في ضحك لا يتوقف، وقال بلغة إنجليزية سيئة بلكنة روسية: المَعذرة، لكنني لم أسمع هذه الكلمة منذ وقت بعيد. هل أنت روسي؟

ثم واصل الحديث بالروسية: آه، هذا السباب الجميل الصادح، وهذه الغضبة الروسية الرائعة! أسعدتني كثيراً.

- يؤسفني أن أخبرك أنني لست روسياً، لكن علمني إياها مدرس روسي ماهر. علمني الروسية بكل جمالها وقبحها. أخذني إلى أعلى طبقاتها، ورماني في أسفل سافلين. أجيد الحديث بلغة بوشكين، وأعرف أيضاً كيف أصبح مع جلف من أجلاف الحانة. لست روسياً، لكنني موهوب في تعلم اللغات، وتعلمت على يد خيرة أساتذة اللغات. (لكن هلا أخبرتنا، يا بافليك، من منهم علمك، وكيف كان مصيره؟ لا عليك، أكمل!). أحفظ عن ظهر قلب مقاطع بالألمانية من

فاوست لجوته، أعرف أن أقول لأحدهما بكل أناقة: ⁽⁹⁾er stinkt wie ein Bock. لغتي الفرنسية ضعيفة بعض الشيء، لكنني أستاذي البروفيسور ظابيل علمني منها عبارات شديدة البذاءة: ⁽¹⁰⁾va te faire enculer!

- لا أفهم، إذًا، ماذا تفعل هنا؟ لماذا تهدر وقتك هنا؟ لماذا تلعب دور نجار وأنت لا قبل لك به، ويمكنك أن تعمل كمترجم، أو مرافق وفود، أو حتى مدرسًا في مدرسة لغات؟ شيء لا يصدق أنك لست روسيًا وتتحدث الروسية بطلاقة، لم يشعرني أحد بالسعادة من وقت طويل كما أشعر بها الآن. الآن سأطلعك على اقتراحي، ولتفكر به. عندي في ساكرامنتو صديق. ليس روسيًا، لكنه شقيق زوجتي، ويدرس هناك في الجامعة في قسم اللغة الرومانية. لا أعدك بشيء مؤكد، لكنني سأرسل معك خطابًا لروبرت جيبون، والأمر يستحق المحاولة. قرر بنفسك إن كنت تريد البقاء هنا تعمل على المخرطة كأبي أخرج أحرق، أو تتقبل عرضي. اذهب إلى ساكرامنتو، وقابل روبرت، هناك سيختبرونك، وسترى. أتوقع أن تبقى في مدرسة اللغات لبعض الوقت، ثم تنتقل بعدها إلى الجامعة. نحتاج وسط هذه التشويش اللغوي إلى أشخاص مثلك. لو أنك مقتنع بما أقول تعال مساء لنتقي وتحدث. أنا هنا أقرأ

9- كرية مثل بوك. (المترجم)

10- اذهب عليك اللعنة! (المترجم)

الكتب الروسية، وأتبادل الرسائل مع أصدقائي الروس، لكن الحديث الحي، يا إلهي، إنه كالماء الحي، a mne nado⁽¹¹⁾ nužno pobaltať.

خاف بافليك من أن هذا الماء الحي سيكون فودكا، تردد في قبول الدعوة، هل من المناسب قضاء أمسية في معية الفودكا وروسي متطفل. بالطبع لم يشك في فيدرو ميخايلوفيتش، في أنه على علاقة بالمتربصين البدلاء، لم يصل بافليك إلى درجة البارانويا. عرف أن الحديث في ماضيه محظور، وعرف كذلك أنه سوف يتحرك على خيط رفيع.

- أنا على عكسك لا أسكن في البنسيون، فقد استقررت. عندي بجوار الغابة بيت صغير، ويسعدني أن أدعوك إلى هناك. النجارة بالنسبة لي هي مهنة العائلة. ورغم أن الغابات هنا لروسي مثلي مختلفة قليلاً، لكني راض، أحببت الأخشاب هنا أيضاً. إن سمحت زوجتك، تعال لنلتقي مساء اليوم. زوجتي أمريكية، اسمها ماري، متسامحة، سنصعد إلى السقيفة، عندي هناك تليسكوب فلكي صغير، وعندما نشعر بالإرهاق من الحديث بالروسية سنذهب للتجول في المروج تحت ضوء النجوم.

تأجل موضوع التليسكوب الفلكي بعد أن صار الحديث

11- لا بد من أن نتحدث، لا بد. (المترجم)

بالروسية مصدر سعادة بالغة. سحره أيضاً أن بافليك مواطن تشيكي،
من تشيكوسلوفاكيا.

- أنا في الواقع من مورافيا. تشيكي ومورافي. وحتى لا يحدث
التباس: كل المورافيين تشيك، لكن ليس كل التشيك مورافيين.

طلب بافليك قلمًا وقصاصة ورق. رسم عليها دائرة، وفي الدائرة
دائرة أخرى. وشرح المنطقة المشتركة بين الدائرتين على أنها
التشيك، ومورافيا في الوقت نفسه. أما ما هو خارج التقاء الدائرتين
فهي أرض التشيك فقط.

قال فيدور مهلاً:

- هذا واضح، لكن الأمر معنا نحن الروس مختلف؛ لأن ليس
كل الروس سوفيت، لحسن الحظ، وكذلك ليس كل سوفيتي
روسياً. سأرسمها لك أنا أيضاً.

أخذ القلم من يد بافليك، ثم ألقاه سريعاً.

- سحراً للسوفييت! أردت أن أقول لك أمراً أكثر أهمية.
أنت لست سهلاً، أنت ثعلب؛ لأنك اقتنصت امرأة في غاية
الجمال، وهذا أمر يتطلب ذكاء، مهارة قناص، كما نقول
عندنا. هل فكرت يوماً في أن زوجتك لها سحر خاص،
سحر أقرب إلى سحر الثعالب؟ ها، ها، الثعلب العجوز
اصطاد ثعلبة جميلة! لا تغضب مني، لكني مرتاح معك

جدًا. غدًا عندما أرى زوجتك سأحني أمامها نصف جسدي. ربما لا تعرف أن وسط المهاجرين الروس هنا مواطنون من تشيكوسلوفاكيا ذوو سمعة طيبة للغاية. تعرف بالتأكيد أن أول دفعة من المهاجرين الروس هربت من لينين عن طريق تشيكوسلوفاكيا، لكن من يهاجر منا الآن هربًا من ستالين عليه أن يتجنب المرور ببراغ، فقد تركزت أنشطة عملاء ستالين هناك بعد الحرب مباشرة. أنت أيضًا هربت منهم بكل تأكيد. من اكتساح البلاشفة.

(الراوي يجلس الآن معهما متخفيًا، ينظر إلى بافليك بفضول. منذ البداية وأنا حائر، لا أقدر على إنكار أن عميل أمن الدولة الحقيق هذا محبوب لسبب أو لآخر؛ لذلك منحته فرصة لقاء الثعلبة. مفهوم؟).

تحول المساء إلى ليل، ودارت ساعات الليل سريعًا وسط هذا الحديث. تولى الروسي دفعة الحديث معظم الوقت، بعد أن سنحت له فرصة إحياء لغته الروسية. لم تتعلم زوجته الأمريكية من الروسية سوى أسماء الوجبات الروسية. من الواضح أن هذا أعجب بافليك، ولم يكن مضطرًا إلى الحديث، وتولى مضيفه الثثرة. قال فيدور وهو يمد له يده بالكأس:

- أنت لا تشرب، أيها الصغير.

أجابه بافليك معترضًا:

- أنا تقريبًا لا أشرب الكحول.

- غير معقول، أنت بهذا تخسر احترامي.

رفعا التكلف بينهما. هبط الظلام فوق الغابة، وحان الوقت لإطفاء مصابيح السقيفة، والنظر في التليسكوب الفلكي.

أزعجني قرار بافليك الانتقال إلى ساكرامنتو. ذهب إلى هناك على الفور، وبقي هناك عدة أيام، ثم عاد بعزيمة قوية. كلما ألتقي الآن بفيودور ينحني أمامي بنصف جسده، ويعتذر من أنه كان السبب وراء كل هذا.

- لكن زوجك ليس لديه طريق آخر. قضية النجار هذه كانت خطأ ارتكبه. لكل منا أن يخطئ مرة واحدة في حياته على الأقل، لكن لا بد أن يكتشف الخطأ في أقرب وقت. سيبقى هنا عامل مساعد، مناوول وطارق، لكن في ساكرامنتو سيستفيد من موهبته الفذة في اللغات. زوجك، يا سيدة سيلفا، ماهر في اللغات، وهذه ميزة يتصارعون عليها هنا في ساكرامنتو. أعرف أنك تشعرين هنا بالجنة، وأنا كذلك، هذا أمر نتفق فيه، ولن تفضلي الانتقال إلى المدينة.

لا أعرف إلى أي درجة أتفق في الرأي مع هذا الروسي، لكنني على ثقة من أن بافليك هو رجل المدينة، وهذه البلدة مجرد قرية كبيرة، لكن عندي هنا غابة واسعة، وطريقان يتجهان شرقًا وغربًا،

غرباً تجاه ساحل المحيط الهادئ، وشرقاً تجاه الجبال والهضاب. إنها لي بمثابة وطن كبير. الغابة هنا مختلفة عن تايجا سيبيريا. أشعر هنا أنني في غابة تشبه تلك التي ولدت فيها (بجوار بحيرة لادوشسكي) التي أخذوني منها، وذهبوا بي إلى أكاديمية بافلوف.

- الغابات التي تحببها كثيراً موجودة أيضاً في كاليفورنيا، في كل مكان.

قال لي بافليك بنبرة توكيد. ثم اتفقنا بعدها:

- حسناً، سنعيش الآن في العاصمة، لكنني سأعود إلى هنا كثيراً لأزور هذه الغابة فوق هذا البيت الخشبي.

- ترددت على الغابة في زيارات خاطفة من وقت لآخر عندما ظننت أننا سنقيم في هذه المدينة الصغيرة حيث مصنع الأثاث إقامة دائمة، فقد كانت متاحة طوال الوقت، وفي كل مرة أرجئ رحلتي الطويلة فيها، لكن الآن، حان الوقت كي أقوم بها.

نهنني بافليك إلى أن حيوانات ضارية كثيرة بالتأكد تسكن الغابة. منها الدببة السوداء، والنمور الرمداء، يغريها ويغويها أن تلامس سيلفا الفاتنة، لكن بافليك كان على ثقة بأنني عنيدة مثله، وما إن أتخذ قراراً أتشبث به، ولا يقدر أحد على أن يثنيني عنه. فاتفق مع فيدور الذي عرف الطرق الآمنة في هذه الغابة على أن يرافقني إلى هناك، لكنني أردت أن أجتاز الطريق الطويل وحدي.

بذلت محاولات مضية كي أقنع فيدور بهذا، وبألا يخاف عليّ. في نهاية المطاف علمني استخدام بندقية صيد جيدة، وأعطاني معها مسدسًا تقليديًا. انطلقت إلى هناك على طريقة مطاردة آل كابوني. هكذا سمّي بافليك الرحلة لكن بعد أن اجتزتها، وبعدما اطمأن، وتحول الأمر إلى مزحة.

قررت أن تكون رحلة لمدة أربع وعشرين ساعة، يوم ويلة في غابات موحشة، بقنينة ماء فقط. توقعت أن تغدق عليّ الغابة بثمارها. وبالطبع توقعت أن يتعلق بي فيدور. وعد بافليك أنه سيهتم بي، وكان وعدًا صادقًا متينًا لأن فيدور رقى صداقته بافليك إلى مرتبة الأخوة، والأخوة عند الروس بمثابة القانون.

اعتقد فيدورا أن متابعتي دونما اهتمام، وحمائتي من أي أخطار قد تهددني في الغابة ستكون سهلة. بالطبع أخطأ، الغابة أرض الثعالب، موطني، اختفيت من عنده بكل سهولة، وهربت منه سريعًا.

لكن لا بد عليّ أن أعوضه عن القلق الذي تسببت له فيه بهروبي، وأن أنحني أمامه انحناءة كاملة، ولأنني أتحدث عن الرحلة بعد أن انقضت يمكنني أن أضيف أنني بالفعل حنيت جذعي كله أمامه، لكنه لم يرجئ الرد، وبدلني الانحناءة بمثلها سعيدًا بعودتي سالمة. وقفنا متقابلين بجذعين منحنيين، يعلوني هو بعض الشيء،

اضطر إلى أن يخفض رأسه أكثر كي يتلامس رأسانا. وقفنا على هذه الحال مثل كبشين يتلهى منهما كل من يمر بنا. خسارة أن لا أحد منهم معه كاميرا ليلتقط لنا صورة. أفضل أكثر أوجست رودان ودفتر رسوماته كي ينحت لنا لاحقاً تماثلاً ويعرضه في باريس، في ميدان بلاص موبار مثلاً.

ثعلبة وتعرف باريس ورودان؟ ولم لا؟ أبذل قصارى جهدي بعد انخراطي في المجتمع البشري للتعرف عليه، ألتهم علوم البشر، أغوص فيها بكل سهولة، تتحول لغة الثعالب إلى لغة البشر إلى درجة تشعرني بالأسف. لهذا السبب أيضاً اجتزت طريق الغابة. أردت أن أرى على الأقل بعضاً من عالم الثعالب الذي صنعني منه الأكاديميون.

فانطلقت مدججة ببندقية، ومسدس، وقنينة ماء، من خلفي فيدور (لكن سرعان ما أفلت منه).

الغابة تزخر بالأشجار، كما هو المتوقع بالطبع. أشجار في كل مكان مررت فيه، على خلاف تايجا سيبيريا. الأشجار هنا تحاول أن تخبرنا عن أختيلتها المتنوعة التي جاءت بها إلى هذا العالم. رأيتها الآن بعين ثعلبة: تذكرت أسماءها، طريقة البشر في إخضاع العالم: أشجار البلوط، والزان، والصنوبر، والتنوب، والقيقب، وأشجار النير، والدلب، والكستناء، الجوز، وصفوف مهيبة من السكوياء. توقعت خلال هذا أن أعرف الكثير عن هذه الأشجار بعيون ثعلبة.

أردت أن أتحدث مع بافليك عن كل ما رأيت. كثير من الأمور أردت أن أتحدث معه فيها، لكنني ما زلت عاجزة أن أعترف له بهويتي. علقت هذا الاعتراف في نفسي. ترقبت الفرصة لكنها لم تأت. قلت لنفسي إنني لم أعد ثعلبة من وقت بعيد، ولم يعد الأمر مهمًا، ولن يعرف حقيقتي أبدًا. أو هكذا ظننت، لكن الحقيقة هي أنني أردت الآن أن أغوص في الغابة، اكتشفت وأنا أتحرك في الغابة أنني ما زلت أحتفظ بطبيعة الثعالب.

التقيت بعدها بأول حيوان بري. وكان أخطرها على الإطلاق، النمر الأرمد. تقدمني على مسافة بعيدة في ارتباك واضح، ثم انحرف عن الطريق إلى أن غاب عن عيني. التقيت في طريقي بحيوانات أخرى، وكلها أظهرت نفس الارتباك؛ أصيبت بتشويش جعلها تتراجع من أمامي. ربما السبب هو أنني كنت ما زلت أحتفظ برائحة الثعالب المخلوطة برائحة البشر، وهو ما أصاب الحيوانات بالهلع؛ فالروائح هي إشارتها الرئيسة. أدهشني سلوك النمر فشغلني عما سواه، رأيت بعدها الدب أيضًا وهو ينعطف جانبًا من أمامي في هلع، وأردت أن أنادي عليه، لكنني فشلت بعدما فارقتني لغة الحيوانات، وصرت حيوانًا أبكم.

هذه هي حالي، صرت سيدة، تحمل في نفسها بعض صفات الثعالب. ظهر الشفق، تبعه ليل الغابة، تحركت بكل ثقة بفضل الحدس الذي لم ينطفئ في نفسي بعد، استطعت أن أستشعر وجود حيوانات لا أراها حتى في الظلام. تختفي سريعًا ما إن

تشعر بوجودي، ولا أسمع سوى حفيف الأوراق في أغصان الأشجار
وفي الأعشاب.

- اسمع، أريد أن أخبرك بشيء. اكتشفت أثناء رحلتي الطويلة
في الغابة أن من حَقَّك أن تعرفه من وقت بعيد.

حبيبتى الرقيقة سلفيا، لقد أخبرتني به من قبل: كان لديك مهمة
سرية، وهي نحر رقبة تشرشل.

كيف أنحرها! بل أنهشها، أيها الأحمق بافليك، لكنني لم أنطقها.
انعقد لساني، وتراجعت سريعاً مثلما تراجع النمر من أمامي بسبب
رائحتي. خشيت من أن الوقت لم يحن بعد للحديث عن أصلي.
فبدلت سريعاً وجهة الحديث.

- أقصد أني فكرت.

- في ماذا؟

- فكرت في أن أدرس أنا أيضاً في مدرسة اللغات.

- أترين، لم أنتبه إلى هذا الأمر. بالفعل أنت أيضاً تجيدين
الألمانية والروسية والإنجليزية.

- والإسبانية، والفرنسية. لو أردت أيضاً بعضاً من اللغة الملايوية.

- أنا منبهر. أين تعلمت كل هذا؟

- حكاية يطول شرحها. سأرجئها إلى وقت لاحق.

وهكذا بقيت أرجئ كل شيء إلى أوقات لاحقة. وسيستمر الأمر هكذا إلى حين، يا عزيزي بافليك، إلى أن أخرج لك لسان الثعلبة.

اجتزت اختبارات مدرسة اللغات في ساكرامنتو بنجاح، وبدأت في تدريس الإسبانية والفرنسية. وحانت اللحظة المناسبة، اللحظة التي انتهت فيها مهمتي المناهضة للإمبريالية، وأفرغت فيها كل ما في جعبتي، ولم يبق سوى قليل يكفي لأي مناسبة طارئة، لكن الحياة لم تكن سهلة في ساكرامنتو، المدينة الأمريكية الكبيرة. أستاذنا شقة في بيت كبير، برج بإمكانات مناسبة، وإيجار مرتفع، لو اعتمدنا على مرتب بافليك في مدرسة اللغات وحده، حيث درس الألمانية والروسية، لما سدد سوى نفقات الإعاشة الضرورية، لكن أكاديمي بافلوف زودوني، لحسن الحظ، بمعارف لغوية كبيرة دون أن يتوقعوا أن أقوم بتدريس اللغات يومًا في مدرسة لغات في ساكرامنتو. أخرجت من حقيبتني زجاجة صغيرة بها دموعهم، وحنيت لهم رأسي احترامًا، وصليت من أجلهم.

يفكرون بالطبع في أمر المتربصين البدلاء الذين يبحثون عنا في أمريكا، وبالتأكيد لن يفوتهم البحث عنا في كاليفورنيا. لم تكن هناك أدنى مشكلة في اكتساب أسماء أمريكية، الأجانب عادة يفعلون هذا كجزء من عملية الاندماج، والتكيف، والمسايرة. عاد بافليك إلى اسم جون هارلي الذي اكتسبه في ميونخ بصفة سائح أمريكي، وصرت أنا سيلفا أون. أطلق بافليك لحيته، وقصرت أنا

شعري، وخبأته تحت القبعات والبيريّهات كي لا يلفت شعري
الأحمر نظر أي متربص من بعيد.

ثم قرر بافليك أن الوقت قد حان كي نوثق علاقتنا ومشاعرنا
القوية. على الفور أقيم زواج مدني خاطف، تخلّيت بعده عن لقب
أون واستبدلته بهارلي.

عشنا على أمل كبير أن يأتي المتربصون من موسكو ومن براغ
دونما تنسيق، يتتبعون الإشارات التي تقودهم إلى بافليك وإلى
سيلفا، وليس بحثاً عن ثنائي متداخل وهو بافليكسيلفا، لكن بافليك
لم يكتف بحفل الزفاف. اقترح كذلك أن نسافر لقضاء شهر عسل،
وأصر على رأيه.

لنترك كاليفورنيا الآن لبعض الوقت، ونعود إلى الورا، خلف
المحيط الهادئ، حيث التشيك، البلد القاصي الجميل، المكتظ
بالأنهار العميقة الغامضة، تصل فيها بقدمين جافيتين إلى أسماء
المسيح⁽¹²⁾، لكنه أيضاً البلد المكتظ بالسجون، ومعسكرات
العمل، والمتربصين، والواشين، وماكينات القتل التي تضع
الناس على المشانق، وتدفع شاعراً مثل قسطنطين ببيل إلى
الانتحار قفزاً من النافذة. فيها كذلك مركز أمن الدولة لينينكا

12- أبيات من قصيدة على الجانب الآخر، للشاعر التشيكي قسطنطين ببيل (1898 -
1952). (المترجم)

في مدينة برنو، وفيه يتأرجح الآن الكولونيل هيرد من حائط إلى حائط، وهو الشخص الذي حل محل الكولونيل صاد. وها هو الآن ينتظر زيارة من مركز بارتولومسكا في براغ.

صوت جرس، ويصعد الزائر في المصعد.

في البداية يلقي نظرة على صورة ستالين.

- مكتبك جميل، والتقارير التي تصلنا عنك جيدة للغاية، لكنك ربما تعرف أن اختيار العميل بافليك سوباك لم يكن في محله. لم تأتينا منه أخبار من ميونخ منذ وقت بعيد، ولا شك في أنه انضم إلى الجانب الآخر. بالطبع لا علاقة لك باختيار العميل سوباك. فقد اختاره القبطان كوشنا، عفوًا ميشنا. عثر عليه في أحد المصانع، لكنه لم ينتبه إلى أنه في الواقع مثقف خائن يتوارى تحت قناع عامل خراطة. لم ينتبه الكولونيل سمراد، عفوًا صاد إلى هذا. الآن سيصبح تحت إمرتك قناص متمرس، اعثروا على العميل سوباك حتى لو في آخر العالم. العميل المزدوج يستحق القتل! مصير الخائن دائمًا هو القتل.

- لكنني.....

- أنتم من دربه، ومسؤوليتكم الآن تصفيته. وهذا شرف لك، ولديك كامل دعمنا، وستكون العقل المدبر لهذا القناص، وبعد غد سيأتيك هذا القاتل إلى هنا، وستسافران بالطائرة

في مهمة تصفية هذا العميل.

عرف الكولونيل هيرد أن اسمه ما زال مكتوباً بحبر سائل، ولا يزال فأر مكاتب كسولاً، لكنه قد يكشف لهم بكل سهولة عن وجهه القبيح، وليس أمامه اختيار آخر. رافق الزائر القادم من بارتولومسكا، وانصرف ليأخذ فرشاة أسنانه. ألقى نظرة حزينة على صورة ستالين الرائعة، ثم انطلق برفقة القاتل المخضرم.

شهر عسل في باريس، هكذا قرر بافليك. ربما ستلتهم الرحلة كل ما لديهم من مدخرات، فضلاً عن أن أوروبا هي أرض الهلاك، وخاصة فرنسا التي تعج بالمهاجرين الروس، وبالتالي بعملاء السوفييت، لكن لا مفر من المغامرة. هما يومان اثنان فقط في باريس، لذلك فالمخاطرة ليست كبيرة، لكنني لست مثل البشر المستخفين، بل ما زلت أحمل في نفسي غريزة حيوانية؛ لذلك تشككت في الرحلة.

حجز لنا بافليك بالهاتف غرفة ليلتين فقط (لم تكفنا أموالنا لأكثر من هذا)، ثم أكد الحجز بالتليغراف، في فندق موريس الفخم القريب من وسط مدينة باريس، لكن سرعان ما ظهرت المشاكل. لم تحلق أي طائرة ركاب من مطار ساكرامنتو في تلك الأيام، اعتبرنا التأجيل إشارة سوء، ففضلنا السفر بالقطار إلى سان فرانسيسكو، ومن هناك لحقنا طائرة متجهة إلى باريس في المساء. لأول مرة يسافر كل منا بالطائرة، وخشيت من حساسيتي

للطيران، لكن انتهت الرحلة على خير، على عكس ما توقعنا. هبطنا في مطار أورلي، ومن هناك حملتنا سيارة تاكسي إلى الفندق مباشرة.

أول ما رأيناه على ضوء مصباح الشارع كانت واجهة الفندق التي تشبه الخراطيش النارية من نهاية الحرب، حيث دارت معارك هنا في باريس. كانت تلك نوبات حربية كما عرفنا لاحقاً، وهي نوبات يفخر بها فندق موريس، ولم يهتموا بمعالجتها. صارت الآن جزءاً من هوية الفندق الشهير.

سقطنا في السرير من التعب بالطبع، ولم نستيقظ إلا في وقت متأخر. توجهنا مباشرة إلى صالون بومبادور، لكن أصبنا بخيبة أمل، لم تشتعل النار بعد في المدفئة، وخلا الصالون من أي زائر. بعدها تعرفنا على المكان، هبطنا إلى الطابق الأرضي حيث جراند صالون، هناك عثر النادل بالكاد على مكان نجلس فيه وسط النزلاء الذين يتناولون الإفطار. أخبرنا أن الإفطار يستمر طويلاً جداً، فهو فرصة للقاءات، ولأننا جئنا متأخرين وقفنا منتظرين أن تفرغ إحدى الطاولات. ثم استأذن زوجين كبيرين في السن أن نجلس معهما على نفس الطاولة. تحدثنا بالروسية، لذلك لم نخاطبهم بالفرنسية **excusez-vous**، بل بالروسية **izvinitě**.

سألنا الزوجان:

- هل أنتم روس؟

أخبرناهم بأننا مجرد مدرسين للغة الروسية.

سألهم بافليك بدوره أثناء ذلك الإفطار الهادئ:

- كيف حال الروس في باريس؟

- نحن في أحسن حال، لكن لا تحكموا علينا حسب ظنكمما بنا. فلسنا مهاجرين، نعيش هنا على مدى أجيال، ولدينا كذلك أصول فرنسية، ومصنع ناجح لإنتاج أطقم الأسنان. الإفطار في فندق كهذا لا يقدر عليه المهاجرون الروس. لا يأتي إلى هنا للإفطار سوى نخبة باريس، والسياح. نعم، باريس تكتظ بالمهاجرين الروس، والنبلاء وكذلك والنخبة الروسية التي هربت من المقصلة السوفيتية. وبالتالي فإن المخبرات الروسية لديها هنا مكاتب دائمة، لكن عملاءها حذرون، يعملون بحرص وهدوء ومن خلف ستار. لا يقتلون المهاجرين بصورة وحشية، لكنهم يدبرون لهم الموت غرقاً في نهر السين، أو في حادثة مرورية.

قال بافليك مازحاً:

- ماذا لو لم نكن مدرسين للغة الروسية، بل عملاء للمخابرات الروسية؟

ابتسم العجوزان:

Vot kakaja šutka، لو أنكما كذلك لعرفتما أننا من النخبة التي

لا تمس، وهذا أمر يحترمه عملاء السوفييت تمامًا، ولا أحد منهم يعترضنا. لا نلتقي بالمهاجرين، ولدينا أقارب فرنسيون نافذون.

فكرنا بعد الإفطار أن البدلاء المتربصين بنا قد يكونون في باريس بالفعل، لكن هذا لم يثننا، وأردنا التعرف على قبلة المهاجرين. كانت رحلة شهر عسل، وحتى الصدف السيئة لا بد أن تأخذ هذا في الاعتبار.

ركبنا سيارة تاكسي إلى ميدان سان مايكل، وجلسنا في مقهى فلاوبرت. اشترى لي بافليك من محل مجوهرات بروشاً رائعاً، أثقل ميزانية رحلة باريس على الفور.

مشينا على الشاطئ الأيسر لنهر السين، لا نعرف من أين لنا بهذه الثقة من أننا في مأمن من أي صدف سيئة. تجولنا في المتحف الوحيد في المدينة، متحف أورسي، وقفنا فيه طويلاً أمام لوحة كلود مونيه حزم القش، لوحة مصنوعة من التلاعب بالظلال.

قال بافليك:

- ربما نحن خائفان من هؤلاء البدلاء المتربصين دون مبرر، وربما التلاعب بالظلال هو السبب.

جربنا رحلة على متن قارب، وهو أمر يفعله كل السائحين، لم أقدر على المقاومة، وذهبت لألقي نظرة على ميدان موبرت، لاموب، كما يطلق عليه الفرنسيون هنا. تخيلت أن أرى في هذا

الميدان تمثالاً لنعجتين صغيرتين، أنا وفيدور ونحن نتناطح، لكنني لم أر هناك سوى سوق مزدحمة.

غداء في مطعم صغير في رو دي سيفرس، وعلى بعد خطوات من هناك حديقة لكسمبورج. جلسنا فيها وقتاً طويلاً نتابع هديل الحمام الذي يقال إن الأديب الأمريكي الشهير عاش على لحمه في أوقات عسرته، اتخذه طعاماً لنفسه ولزوجته هادلي، وابنه بومبي. انتظرنا هناك أن يأتي أحدهم من خلف الدكة، ويضع يده بحدة على أكتافنا. حسناً، لقد منحنا المتربصين البدلاء فرصة لم يخنموها، فقمنا، وانطلقنا متمهلين على الكورنيش.

عدنا في وقت متأخر من المساء، واكتفينا بأكل شطيرة، ثم تعجلنا العودة إلى غرفتنا الصغيرة. ليتنا عرفنا ما ينتظرنا فيها، والهروب منه لا يكفي لنسيانه.

أصبت بالهلع، وأعجز عن وصف ما حدث لبافليك.

مرر يده بروية أثناء الجماع على ظهري. دون أدنى شك: ظهر خط من شعر ثعالب أحمر على امتداد ظهري. ربما نبت في آخر اثنتي عشرة ساعة ونحن نتجول في باريس.

- أردت من قبل أن أخبرك، لكنني لم أجد شجاعة في نفسي.
أنا... ثعلبية.

ارتدينا ملابسنا، وهبطنا إلى صالون بومبادور حيث اشتعلت النار في المدفأة هذه المرة. الأضواء خافتة، وبعض العشاق

الذين لم ينتبهوا إلى وجودنا. لا أتذكر الآن ما شربناه يومها، ربما جن بالتونيك. نظر كل منا إلى لوحة ضخمة سقط عليها ضوء نيران المدفأة: جسد امرأة يخرج من خلفية سوداء، ربما هي مدام بومبادور الذي يحمل الصالون اسمها. لم ينطق أي ما كلمة واحدة، ثم عدنا إلى الغرفة مجددًا، وجلسنا في العتمة، ثم أخيرًا تكلمت أنا. بقيت أنكلم طوال الليل على ما يبدو لأنني رأيت أول خيوط الفجر خلف النافذة.

عرف عني حتى الآن أنني أعمل لصالح لوبيانكا، مركز إدارة أمن الدولة، أرسلوني لقتل تشرشل، لكنه لا يعرف أن من أرسلني هو الزعم نفسه الذي عثر عليّ في معهد إيفان بافلوف، وحوطني من ثعلبة صغيرة اصطادوها من الغابات عند بحيرة لادشو. حكيت له باستفاضة عن الزعيم الذي تابع بنفسه عملية تحولي إلى إنسان، وأرسلني في رحلة إلى سيبيريا كي يعرف مقدار تحملي ومدى صبري. حكيت له عن المدينة التي بنيت من قطع الثلوج على حافة التندرا، وكانت صورة طبق الأصل من مدينة المئة برج⁽¹³⁾ التي زرتها لاحقًا. تركت موسكو وأنا ما زلت ثعلبة، لكنني تجولت في شوارع براغ كامرأة. لم أمنع نفسي من أن أعترف لبافليك أن الزعيم تخلص من الأكاديميين خشية من أن يطوروا مخلوقات ذكية أخرى قد تقف في أيادي الأعداء، ورثة بوخارين وتروتسكي. ثم قمت وسط العتمة، وبحثت عن حقيبتني، وأخرجت

13- مدينة المئة برج رمز إلى مدينة براغ. (المترجم)

منها دليلاً مادياً، زجاجة دموع الأكاديميين، أشعل بافليك عود ثقاب، وأمسك العود في يد، والزجاجة في يده الأخرى. يديرها بروية، فاشتد ارتبাকে.

على هذه الحال انتهى شهر العسل، وعودة معقدة إلى أمريكا: من مطار أورلي في سان فرانسيسكو، ومنها بالقطار إلى ساكرامنتو.

خلال يومي الإقامة في باريس حدث تحول إيجابي في جامعة ساكرامنتو. أعادوا افتتاح قسم اللغات السلافية. بقي القسم يتيمًا لمدة طويلة بعد موت البروفيسور فشافلودا إيفانوفيتش، أو لا أعرف ماذا كان اسمه، والآن حان وقت التبنّي. عثروا سريعًا على خبير في البولونية، ثم قرروا استدعاء بافليك كخبير في الروسية. كان أمرًا استثنائيًا؛ لأن بافليك لا يحمل شهادة جامعية، لكن لحسن الحظ لم يظهر وسطهم أي متحذلق، فعدد الطلبة، من جهة أخرى، لم يكن كبيرًا، إجمالي عددهم ثمانية، عفوًا! تسعة طلاب. تقبل بافليك الأمر، لكن المشكلة الحقيقية كانت في مكان آخر.

- ألا تظن أنك تبالغ؟

قلت له أنهه. رغم هذا عرفت بالطبع أنه من الخطأ التقليل من شأن المتربصين البدلاء الذين أرسلوهم وراءنا بكل تأكيد. سواء من براغ في أثر بافليك أو من موسكو في أثري أنا. صار يشكك في كل شيء بعد أن كان حتى الآن دون أي مخاوف. قرر أن

واحدًا من قتلته وسط الطلبة، ويتحين اللحظة المناسبة.

ذهبت يومًا لرؤيته: شاب نحيف يكاد يكون أصلع، ساذج، تشنج في عينه اليسرى، رغم هذا اعتبر بافليك هذه السذاجة دليل احتراف المهنة، وتشنج عينه اليسرى أحيانًا دليل دامغ على أنه بلا شك قاتل مأجور. دون أي دليل آخر، ولا حتى أمانة (إن اعتبرنا أن السذاجة والتشنج أمانة) على شكوكه. فهمت بالطبع أن خوفه من قاتل مأجور عنده في الفصل ليست سوى ذريعة يدفع بها ما عرفه عني أثناء رحلة شهر العسل. تراجعت حياتنا العاطفية بعد العودة من باريس، وتبددت، وهو الآن خائف من حالة الغموض التي تلفني؛ ففعلت أمرًا عرفت منه لاحقًا أنه خطوة استفزازية.

وقفت عارية وهو عائد من الكلية، ظهري ناحية المرأة، أنظر إلى الخلف على شريط الشعر الأحمر الملعون على ظهري الذي امتد من أعلاه إلى أسفله. فتح الباب بشكل عفوي، فأدرت له ظهري فجأة، رد فعل سريع، مظهر من مظاهر الخجل، لكنني في الوقت نفسه وضعت أمام عينيه شعر الثعالب الأحمر، رأيت ردة فعله في المرأة: خاف لكنه لم يتراجع.

ارتديت ملابسني، وتحدثنا في الأمر مجددًا، تناقشنا في كل تفاصيله، وحكيت له الحكاية بأكملها من جديد.

ظن أن اعترافاتي له في فندق باريس كانت مجرد كابوس؛ استمع إليّ دون أن يعلق، لم يعرف ماذا يفعل. لم يصدق ما

أقول، وفي الوقت نفسه يصدقه، حاول طرد الفكرة من رأسه، وألا تقع عيناه على ظهري الذي نبت عليه شريط شعر ثعالب أحمر مؤخرًا، كان هاجس البارانويا بأن أحد طلابه قاتل مأجور أرسلوه وراءه من براغ مجرد ستارة يخبئ خلفها ما عرفه عني، ويخفيه.

أخيرًا تحدث عندما أعدت الحكاية على مسامعه:

- أنتِ إذاً ثعلبة حقيقية؟

- أنا ثعلبة على شكل امرأة. أو هذا على الأقل ما ظننته حتى الآن. وربما أخطأت. يبدو أنه تحول مؤقت، وربما أنا الآن أعود مجددًا إلى طبيعتي كثعلبة. يبدو أن الإنسان غير مؤهل لتحويل الحيوانات إلى بشر، وهذا أمر يزعجني كثيرًا. لو أنني لم أقابلك لما أهمني الأمر، وربما تقبلته وسعدت به. أن أكون ثعلبة أفضل بكثير من أن أكون امرأة، بشرًا.

قال بإفليك بصوت خافت:

- لكنني، لكنني لن أسمح لك بهذه العودة. لن أسمح لك أن تعودي ثعلبة.

قال الزعيم، المسمى كوبا، على اسم زعيم عصاة جروزي، في إحدى اللقاءات إنه لا يجوز الاستخفاف باسم الإله، كما لا يجوز التحدث بلغة سوقية. التزم هذه التعليمات بدقة طيلة حياته؛ لم

يلفظ أي ألفاظ نابية، ولم يلوث شفثيه بأي كلمة سوقية، رغم أنه تعرض لمواقف، كموقف اليوم، يبرر له أن يسب ويلعن. نعته ونستون تشرشل، رئيس الحكومة البريطانية بأوصاف قذرة، وصفاً تلو الآخر، ولم يتوقف. وكانت هي الكائن الوحيد في العالم القادر على أن يوقف كل هذا، ولم يفعله، لكن الزعيم لم يلمها على ما فعلت، وصب جام غضبه على تشرشل، وليس على سيلفا.

تعرض الزعيم لخبرات سيئة مع أولاده، لهذا السبب تبني سيلفا، وشعر الآن بمدى عمق مشاعره تجاه ابنته، وتغلغل هذه المشاعر في وجوده كله رغم أنها هجرته، لكنها كائن حر، وثمن كوبا هذه الحرية.

أكثر ما أسعده أنه قادر على أن يقتل ملايين البشر كيفما يشاء، يرى الهلع في عيني كل من استدعاه للموت، هلع سيطر عليه. أما الآن فهو يشعر بشيء أقوى من كل هذا. شيء لم يعرفه من قبل. شعر بالحب، بعالم لا حدود له ترعرع في الجولاج⁽¹⁴⁾، ولم يكن له أثر في الكرملين من قبل.

ارتدى زيه الحزبي، وحذاءً جلدياً بعنق طويل، كعادته كل يوم، عرف أن شيئاً ما قد تغير فيه حياته، من اليوم وإلى الأبد.

آه يا ثعلبتي! كوني سعيدة حرة أينما كنت. أخجل من أنني أرسلت وراءك من يراقبك، وأعدك بالأفعال مجدداً.

14- الجولاج هو قطاع المخابرات السرية. (المترجم)

الجزء الثالث

الوصية

تقع قريباً من ساكرامنتو واحدة من مستوطنات عديدة في كاليفورنيا كانت هدفاً للباحثين عن الذهب، أطلقوا عليها ذات يوم اسم تاري فلين، لسبب أو لآخر. بنى فيها أليكس نيقولايوفيتش بيتكوف، والد طالب من طلبة بافليك التسعة، مستعمرة روسية صيفية. أكواخ من جذوع الأشجار كانت في السابق مأوى طالبي الذهب، ينظم فيها كل أسبوعين لقاءات لأعضاء الجالية الروسية.

دعا يوماً بافليك وسيلفا هارلي، رغم أنهما ليسا روسيين، لكنهما تشيك متأمركان (ادعت سيلفا بأن لها جذوراً تشيكية من أجل إدخال السرور على بافليك، وتعلمت من التشيكية ربما عشرين كلمة، وبعض عبارات الشتائم اللاذعة التي جاءت على لسان بافليك بعفوية)، لكن لغتهما الروسية المتقنة، وشغف بافليك بالأدب الروسي الذي بثه فيه يوماً مدرس اللغة الروسية العجوز، فضلاً عن أنه يعلم الروسية للأطفال في الوقت الحاضر، كل هذا دفع الروس المقيمين في ساكرامنتو إلى قبولهم ضمن الأسرة الروسية.

يولي روس المهجر للأسرة بوجه خاص أهمية كبيرة؛ لأن الأسرة هي الوطن الذي حملوه معهم إلى بلاد المهجر. تماهى الوطن مع الأسرة في اللغة الروسية بدرجة أقوى من باقي

اللغات. صحيح أن مفردة أسرة في الروسية هي **sejma**⁽¹⁵⁾، لكن الوطن معناه **rodina**⁽¹⁶⁾، بينما كلمة **rodina** تعبر في الروسية عن معنى القبيلة، الميلاد، الأم، الوالدين، كل ما هو عائلي.. الخ. لهذا يقصد روس المهجر بكلمة أسرة هذا المجتمع الذي تربطه أفراده علاقات أسرية، أو صلة قرابة أو حتى صحبة. إنه الوطن الذي لا يمكن أن يسلبهم إياه أحد، مهما كان وأينما كان، ولا حتى في المهجر.

اعتاد فيدور فيدين على زيارة المستعمرة بصورة منظمة برفقة زوجته الأمريكية، فصار واحداً ممن تبادل القبلات والأحضان مع سيلفا وبافليك أثناء حفل استقبالهم وانضمامهم إلى الأسرة. تذكر بافليك هذا العناق الجماعي والقبلات (على الشفاه مباشرة) التي كرهها من لقاءاته مع الرفقاء في مركز الشرطة بموسكو، لوبيانكا، كلما جاؤوه يسلمونهم التعليمات. أخطأ يومها واعتقد أنها عادة سوفيتية سيئة تعبر عن الأخوة، وها هي فرصته ليعرف أنها عادة روسية سيئة شائعة، وربما تكون عادة في كل البلاد السلافية.

دائماً ما كان برنامج ملتقى روس المهجر الذي يستمر أسبوعين حرّاً للغاية، ولا يجمعهم سوى الغداء والعشاء، وجبات روسية شعبية تراجعت وسط الحياة في ساكرامنتو. أقيم ذلك الاستقبال

15- وتعني عائلة. (المترجم)
16- ومعناها أسرة. (المترجم)

الحافل للزوجين هارلي في أول أيام الملتقى، وقرر أليكس بيتكوف أن يقرأ بهذه المناسبة خطاب مايكل فاسيليفيتش أكسكوف.

ربما عرفوا جميعًا بأمر هذا الخطاب، وربما قرؤوه، لكن قراءته هذه المرة لها شأن خاص.

أنقذ خطاب مايكل أكسكوف حياة بعض الروس في باريس الذين صفوهم جسدياً في الخفاء وبهدوء، إنها طريقة عملاء السوفييت في باريس في التعامل معهم، لكن قبل أن ينفذوا عمليات القتل تلك جاء خطاب تحذير إلى باريس من أكسكوف، ثم هرب المحكوم عليهم عبر المحيط الأطلسي.

هذا التحذير مختبئ في جملة وسط جملة كثيرة أخرى، لذلك لا ينتبه إليه أحد عند قراءته في عجالة. لكن يسعدني الآن أن أخبركم، يقول بيتكوف، إن حتى الجملة التي استخدمها للتمويه، أجملة تختفي وسطها جملة التحذير، هذه الجملة جديرة بالانتباه، خاصة في مناسبة كهذه المناسبة، ونحن نستقبل الزوجين التشيكيين هنا في المنفى. رجاء التصفيق للزوجين هارلي اللذين نعرفهما اليوم بيننا باسم سيلفا وبافليك.

رفع بيتكوف يده بعد أن طال التصفيق كي يواصل حديثه:

- كاتب هذا الخطاب إذاً مهاجر روسي يعيش في مدينة تشيكية، تحديداً في مورافيا.

هنا رفع فيدور فيدين يده كي يشرح للحضور أن أهل مورافيا يعيشون في مورافيا، وهم أيضًا تشيكيون في الوقت نفسه، لكن ليس كل تشيكي مورافيًا، أليس كذلك يا بافليك؟ أراد أليكس بيتكوف مواصلة قراءة الخطاب، لكن ارتفعت عدة أيادٍ وسط الحاضرين تطالب بتفسير، لماذا ليس كل التشيكي مورافيين، لكن بيتكوف هدأهم بأن الوقت سيتاح لاحقًا لاستيضاح الأمر.

من حسن حظ أكساكوف أن وصلته معلومات عن عملية التصفية التي يخطط لها عملاء السوفييت، وأن خطاب التحذير قد يوضع خلسة وسط كومة الخطابات المرسلة من مركز أمن الدولة في برنو، ولن يخضع لأي رقابة.

(لكن ما فائدة الراوي إن لم يضيف بعض التفاصيل هنا. علم أكساكوف بمعلومات عن عملية التصفية التي خططوا لها في براغ بفضل زيارة رفقاء من مركز موسكو الشرطي. جاؤوا مجددًا لتوزيع تعليمات لوبيانكا على الأشقاء التشيكي، ربتوا على أكتافهم، ثم أخذوا يتباهون بثقة أمام الأشقاء بعملية باريس القادمة في رو دي شات على أنها نموذج للكفاءة والحرفية. جلس وسطهم أكساكوف بصفته مترجمًا؛ لأن أمن الدولة وقتها لم تكن تعرف لغة الأشقاء. وهنا لا بد من التنويه عن بعض الملابس الإيجابية التي لعبت دورًا مهمًا في هذا الأمر. أقصد أن إلقاء خطاب في برنو أمن الدولة أمر مستحيل، لكن أكساكوف الجريء كان يد الله الذي ساق إليه الصدف التي نعرفها باسم **Fors felix**. أيضًا

لا بد أن نعرف أن المراسلات التي ترسل من مركز أمن الدولة في لينينكا في الواقع لم تسلم من الرقابة، لكن الرقابة على مراسلات أمن الدولة كانت يقظة وقوية، جرت دائماً على طريقة لعبة اليناصيب: يجتمع الرقباء، يحمل أحدهم قبعة ضخمة، بينما يلقي فيها الباقيون خطابات أمن الدولة، ثم يسحبون منها بصورة عشوائية. ولم يسحبوا ذلك الخطاب التحذيري. صدفة إيجابية أخرى وهي أن أفراد شرطة لوبيانكا لم يعرفوا أن المترجم روسي هاجر بعد ثورة أكتوبر. وهنا ساق القدر، لكن في وقت متأخر صدفاً سيئاً، تعرف باسم **Fors turpis**. وسيظل بافليك طيلة حياته يتذكر مدرسه الروسي المفضل، مايكل أكسكوف، وهو معلق من قدميه، ورأسه يتدلى، وعيناه زائغتان، تنظران ناحيته.

ملحوظة أخرى بشأن رو دي شات. إنه أضيق شارع في باريس، فلا حيلة للمهاجرين الروس في ذلك المدق لو جاءهم القتلة (السوفييت).

نعد الآن إلى كلمة بيتكوف الجالس على رأس منضدة طويلة على كل حرف يو في غرفة الطعام، وهي أكبر غرفة في الكوخ الخشبي المشترك.

كتب أكسكوف، والآن يقرأ بيتكوف ما كتبه: لا بد أن أعترف أنه لا يسعدني كثيراً تعليم أحد من رجال أمن الدولة الأغبياء، لكن لأنهم لا يريدون مني غير هذا، وهو أمر ضد قناعاتي الشخصية، لكن لا بد أن أستجيب، ولأنه قد يأتي من وسط الطالحين صالحون،

فعندي هنا وسط هذه الأعشاب الضارة تلميذ ذكي طيب. يتعلم اللغة بسهولة عجيبة، يجيد النطق الروسي الصحيح على الفور، يفرق بمهارة بين اللكنة الروسية والتشيكية، ويحب الأدب الروسي. هذا لن يكون أبداً ولداً سيئاً، ويمكنني القول إنه خروف أبيض وسط سرب خراف سوداء. يحلو الحديث معه بعد انتهاء الدرس. عرفت منه أن مدير أمن الدولة، القبطان صاد يحتفظ في مكتبه بلوحة ضخمة لستالين، ربما رسمها إيليا يافينوفيتش رايبين.

وهنا علت أصوات على الفور تحتج: رايبين لا يمكن أن يرسم صورة ستالين! فقد عاش في المهجر في فنلندا. الرسام رايبين ثروة قومية ولم يعمل لصالح البلاشفة يوماً!

هذا هو رأي أكساكوف أيضاً، من فضلكم، دعوني أكمل قراءة الخطاب.

حسناً، تضمنت الرسالة بعض الأسطر الحماسية عن رجل أمن الدولة الشاب الموهوب الذي أثنى عليه أكساكوف، وحفظ بعض قصائد بوشكين، وجزءاً من ملحمة روسلان ولودميلا التي تبدأ -إن جاز لي أن أذكركم بها- بأرنب مدرب يمشي على جنزير طوال اليوم، صباحاً ومساءً. هو إذاً بالتأكيد شاب جيد، كرر أكساكوف الجملة عندما أدهشه حركة أشعار بوشكين الدورانية.

وصل بيتكوف إلى نهاية الرسالة، ثم التفت إلى بافليك كي

يعبر عن إعجابه بشاب يخدم في مؤسسة عفنة مثل مؤسسة أمن الدولة، ورغم هذا استطاع أن يحافظ على بعض الصفات الإنسانية.

لكن بافليك اعترض على ما يقول:

- لا أرى في عميل أمن الدولة هذا ما يثير الإعجاب به. صحيح أنه ألقى بكل حماس أشعار الأرنب المخضرم الذي يمشي على جنزير طوال اليوم، من الصبح وحتى المساء، لكنه من ناحية أخرى، على الأرجح، وشى بالتشيك الوطنيين الذين انتهوا في سجون الشيوعيين مقيدون بالسلاسل.

سأله بيتكوف:

- أنت تعرفه إذًا؟

قال بافليك وهو ينفذ جسده من القرف:

- هذا ما ينقصني!

حان وقت الغداء. تناولوه على نفس المنضدة الطويلة على شكل حرف يو، بعد أن غطوها بمفارش وردية من أجل تناول غداء مشترك. ظهر طائر صغير، من سمان كاليفورنيا (**Callipepla californica**) بعرف جميل وسط الضجيج وتوزيع الأطباق التي تتصاعد منها الأبخرة، وأطباق الطعام، وأدوات المائدة، دخل من النافذة، وظل يتطاير لبعض الوقت على سقف الغرفة قبل أن

ينصرف من نفس النافذة.

فيما يتعلق بقائمة الطعام: حساء سوليانكا ثقيل، ثم شاشليك من لحم الضأن، وكباب بالقشدة مجدول في رقائق روسية - بليني، وبالطبع حلوى مثلجة بالفراولة. لم يندهش عندما حضر البروفيسور بنين أثناء الطعام، وكأنهم جميعًا كانوا ينتظرونه.

بروفيسور تيموفاي بافلوفيتش بنين شخصية إن غابت عن أي لقاء سنوي حميم في مستعمرة الذهب هذه فلا قيمة للقاء. وعادته كل عام، جاء هذه المرة أيضًا متأخرًا كثيرًا عن مواعده. كلهم هنا يحبونه، يعرفون أن طريقه من وايندل دائمًا ما يكون مصحوبًا بالعثرات، والفوضى، والشرود. فكروا أكثر من مرة في أن يذهب أحد منهم للبحث عن البروفيسور بنين وسيارته الشاردة كي يحول دون شرودها، لكن رفض هذا الاقتراح بشكل قاطع: فلو منعنا البروفيسور من الشرود لخسرنا قديمًا محبوبًا هزليًا بقدر ما وسط المهاجرين الروس.

تيموفاي يبين له كرسي محجوز على الطاولة، كرسي لا يقدر أحد على أن يلمسه، ويظل خاويًا إلى أن يحضر. الروس لا يحبون الجلبة على الغداء، ذنب كبير أن يقوم أحد من على الطعام، لكنهم يكسرون هذه القاعدة، ويقبلون جميعًا على معانقة الرجل، وتقبيله بأفواه ملوثة من الشاشليك، والترحيب به. ثم يستكملون الغداء.

ينتهي الغداء بشاي روسي أسود: غلاية ضخمة في كوخ مجاور به صالون صغير، يجلسون فيه جميعاً عند طاولات صغيرة على شكل دائرة حول طاولة عليها الغلاية. يجلس بنين معهم على الطاولة الآن. ينتظرون جميعاً بعض الترقب ما أحضره لهم البروفيسور.

بنين يدرس اللغة الروسية في جامعة فايندل، وكلهم أيضاً يعرفون أنه يحيا على الأدب الروسي بكل حماس. هذه المرة جاءهم بشيء لم ينتبهوا إليه حتى ذلك اليوم.

هذا الشيء اللافت الذي لم ينتبهوا إليه حتى الآن هو مقدمة رواية تولستوي أنا كارينينا. يبدو أن ليف نيقولايوفيتش نفسه لا يعرف في أي يوم في الأسبوع تبدأ روايته. يتوقع القارئ أنه قد يكون الجمعة لأن الساعاتي في ذلك اليوم يذهب إلى عائلة أوبولنسكي لضبط ساعاتهم، أو ربما كان الخميس، كما يتضح من حوار بين ليفين وأم كيتي.

وهنا يأخذ بنين الكلمة. يخطب أحدهم بالملعقة على الكأس، بلا داع؛ فأعينهم جميعاً عالقة على شفتي بنين.

- يمكنني أن أقول لكم في أي يوم تحديداً بدأت الرواية.

يقول بنين وهو يلتفت جهة هذا المحفل الاجتماعي العائلي، يشعر الآن بأنه في ذروة فرحه، مثل بذرة صغيرة سقطت من كوز صنوبر، وتشعر أنها صارت جزءاً من غابة ضخمة.

يواصل بنين:

- أحداث رواية تولستوي، إذاً تبدأ في بداية عام 1872، وتحديداً يوم الجمعة، الثاني والعشرين من فبراير، حسب التقويم الجديد. يقرأ أوبلونسكي جريدة الصباح، بينما يعود الدوق فريديك فرديناند فون بيوست الذي عين مبعوثاً نمساوياً إلى البلاط الإنجليزي، وقضى شهرين في القارة بعد أن سلم أوراق اعتماده إلى لندن حيث يستعدون لإقامة قداس شكر من أجل شفاء أمير يلز من حمى التيفوئيد، قداس سيقام في السابع والعشرين من فبراير في كاتدرائية القديس بيتر...

لكن كيف عرف بنين من استعدادات القداس المكرس للدعاء من أجل شفاء أمير ويلز من حمى التيفوئيد أن رواية تولستوي تبدأ يوم الجمعة، الإجابة ستعرفونها عندما تقرأون رواية فلاديمير نابوكوف عن بنين، فالراوي الآن يحذف جملة بنين بكل عزيمة كي يستطيع متابعة الزوجين هارلي، بافليك وسيلفا اللذين قررا فجأة الخروج من حاضرة بنين. وفقاً بهدوء، واختفياً بكل هدوء.

يهمس بافليك بالروسية:

- هل جننا؟ حتى هروبهما من محاضرة بنين لا يعني هروبهما من اعتماد اللغة الروسية كلغة حوار المشاركين في هذا المحفل العائلي الكبير.

بقيا وحدهما في حمام ذلك الكهف. وقف بافليك الذي التبس عليه الأمر ولا يفهم هذا الجزء من محاضرة بنين، ينظر باهتمام إلى سيلفا وهي تخرج من جيب سترتها الأمريكية الأنيقة ماكينة غربية، ومن جيبتها الآخر تسحب سلكاً.

نسيها أحدهم في الدهليز على إفريز النافذة. المعذرة، لا أستطيع تأجيل الأمر، ببساطة لا أستطيع. لن تفوتنا محاضرة بنين. لقد اختصرها فاشيك كوروتشكين هنا. وسأقروها لاحقاً.

تدس سيلفا طرف السلك في الماكينة، والطرف الآخر في فيشة بالحائط فتز الماكينة.

كان معها دليل استخدام. إنها أحدث ماكينة حلقة كهربائية.

ثم تتوجه إلى إحدى الخزانات، وتأخذ منها شماعة، تعلق عليها سترتها، وتخلع قميصها، ثم تحرر حمالة صدرها.

- انتظري، هل جننت؟

يكرر بافليك الجملة وهو لا يفهم ما يحدث. تدس سيلفا في يده الماكينة وهي تعمل، وتدير له ظهرها:

- لو أردت أن تزيل هذا الشعر بشفرة حلقة أو أي موسي فعليك أن تدهن ظهري كله جيداً بالرغوة، ثم تضع عليه الماكينة، وتمررها من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى. هل هذا واضح؟

يقف بافليك وفي يده الماكينة تترز، ثم ينظر إلى شريط الشعر الأصفر على ظهرها.

- ماذا تنتظر؟ لا بد أن نتخلص منه قبل أن تنتهي محاضرة بنين. عليك بعدها أن تعيد الماكينة التي نسيها أحدهم على الإفريز.

- بكل هذا الشعر الأحمر؟

ينتبه بافليك إلى الأمر، فيذهب ناحية الحائط، ويسحب السلك من الفيشة:

- لو حلق أحد شعره فسوف ينمو بعدها بكثافة؛ لذلك لن أزيل هذا الشعر من على ظهرك.

ثم يعيد الماكينة إلى سيلفا، ويلف السلك كي يتسع له جيب سترتها.

يقول بافليك:

- أمر آخر، أنا لا أريدك أن تتخلصي من هذا الشعر. لقد اعتدت عليه. هذا العرف الأحمر على ظهرك يشبه عرف الديك، حقل شقائق النعمان، يا له من حلم ساحر. أتعرفين، أريدك معي كامرأة وثعلبة في آن واحد، فأنا من مناصري تعدد الزوجات، وفي الوقت نفسه فيمينوفيل، وبستيوفيل⁽¹⁷⁾.

17- أنثوي ومحب للحوانات الضارية. (المترجم)

تصيح سيلفا وهي شبه عارية:

- آه منك، أيها البستيوفيل!

ينفجر الاثنان في الضحك، فتقع الماكينة على أرض الحمام، وتتفسخ، وسرعان ما تتحول ضحكاتهما إلى أنين عذب. يهرع بافليك ناحية الباب، ويدير قفله.

ما زال بنين يحمل في جعبته مفاجأة أخرى. بعد محاضرة حول الزمن في رواية تولستوي، ينتقل إلى محاضرة عن مجتمع أسر المنفى بصفته حافظة للروح الروسية. محاضرة دسمة بصفة خاصة، يجلسون بعد التهامها جميعاً في حالة انبهار: ها هي أرواحهم قد شبت، مثل دب روسي اقتنص أيلًا كبيرًا، وأخذ ينهشه وهو جالس. لا شك في أن: مجتمع العائلة هذا هو وطنهم الذي حملوه معهم إلى المنفى.

بعدها تقدم فيدور فيدين من بافليك (الذي ما زال يلهث من أثر جماع سريع في الحمام، جماع عذب ممتع) يحمل سبورة صغيرة سوداء، ويسأله إن كان يريد أن يفسر بنفسه الفرق بين بوهيميا ومورافيا، وهو أمر يتطلعون جميعًا إلى سماعه. يهز بافليك رأسه، فيأخذ فيدور طبشورًا، ويرسم على اللوح دائرة، وفي الدائرة دائرة أخرى صغيرة.

لكننا نعرف هذا الأمر جيدًا، ولا داعي من شرحه.

نعود الآن في لينينوفكا، مكتب أمن الدولة في برنو في شارع

لينين، لكن هذه المرة في صالة التدريب الكبيرة حيث استدعى الكولونيل كولوشاك الذي حل محل الكولونيل هردا كل نخبة شرطة مورافيا، جيش أمن الدولة. ألقى نظرة على المقاعد المتخمة التي تراصت على شكل مدرجات كما في قاعة المحاضرات.

- نعرف جميعًا أنه من السهل التخلص من أعداء الطبقة العاملة؛ نقبض عليهم، ونضعهم في السجون، ومعسكرات العمل، أو نعدمهم مباشرة. حتى لو امتلأت بهم السجون، والحفر، وزرائب الحيوانات. هذا لا يمنعنا من مواصلة الطريق الناجع، ومحاربة التفسخ الأخلاقي، وتفتيت الأسر غير المرغوب فيها. الأسر أعداء الطبقة العاملة هي حافضة القوة الروحية في معسكر الأعداء كله.

توقف كولوشاك للحظات ليعطي فرصة كي يصمت أزيز القاعد، وينتظر وصول زائر من مركز بارتولومسكا في براغ الذي جاء وجلس في أعلى المقاعد، في المقعد الخلفي، وينتظر أن يعطيه الزائر الإشارة بأن يواصل الحديث.

- لقد نفذنا هذا بصورة مثالية مع أسرة كرامير. إنها أسرة كان تحظى برصيد أخلاقي رفيع منذ وقت قريب. تفكيك أسرة كهذه هو طموح مهني هام. في كل أسرة، وتحديدًا في أسرة كرامير، دائمًا ما نجد حقييرًا واحدًا على الأقل، عديم الضمير، يتربقب أي فرصة لاستغلالها. لهذا زرنا وسطهم هناك بذرة ضغينة وخيانة، ومنها بدأنا في

تجريف قواهم الروحية، لكن هذا أمر سهل، ونتطلع إلى ما هو أكثر من هذا.

- هذا ما بدأناه بنجاح مع البروفيسور أرنوشت كرامير الذي مكانه من الهجرة دون أن يعرف أننا من يقف وراء هذه الهجرة. رتبنا كي يعمل كرامير مدير تحرير في محطة إذاعة أوروبا الحرة، لكن للأسف لم يتلقَّ الطعام، وأصيب بخيبة أمل كبيرة، لكن خيبة الأمل هذه لم تصل به إلى درجة أن تننيه على اختيار المنفى، وتعيده إلى الوطن. فأرسلنا شقيقه وراءه، زدينياك كرامير. طيب أرسلناه ليعمل في مدينة صغيرة نائية، مقاطعة يسكنها الغجر. ثم مكانه من التقدم خطوة خطوة ليحقق مكانة أفضل إلى أن أصبح كبير أطباء النساء في المنطقة. حتى هذه اللحظة لم يكن لنا مطلب محدد منه، لكنه وقع في قبضتنا. فهذا الطريق الذي قطعه من مقاطعة الغجر وحتى منصبه ككبير أطباء النساء يمنعه من التراجع؛ فتقبل العرض التالي. لم يشك أرنوشت كرامير بالطبع في تعاون شقيقه مع أمن الدولة، لكنه اعتبرها سقطة بسيطة مكنته من هذه اللقاءات الأسرية، لقاءات بشت كثيراً من الدفاء الأسري في برودة الغربة. اعتقد بسذاجة أنه يتحفظ في الحديث خلال تلك المحادثات الأسرية. بهذه الطريقة قدم لنا زدينياك كرامير معلومات من دوائر المهاجرين من خلال شقيقه أرنوشت كرامير. في البداية أردنا أن نضع بافليك سوباك،

العميل المحترف، رقيبًا على أرنوشت كرامير، لكن فشلت المحاولة، لكننا نجحنا في تجنيد أحد أفراد أسرة كرامير ليكون رقيبًا عليه، وهو أفضل بكثير، لكننا لا نعطي هذا الأمر أهمية كبيرة، الأمر هنا مسألة مبدأ. أن نوقع بإنسان ما زال حتى الآن جديرًا بالاحترام أفضل بكثير من اصطيد حقيير بلا ضمير.

تواصلت المحاضرة فيما بعد بأخبار طيبة عن النجاحات التي حققوها، وتضمنت كذلك تثقيفًا حول خطوات تفكيك الأسر.

بقي الزائر القادم من براغ في مكانه في آخر الصفوف بعدما خلت صالة التدريب من الحاضرين.

قال الكولونيل كولوشاك:

- هيا بنا إلى مكتبي، الجو هنا خانق. لنفتح هناك زجاجة براندي أرمنياك. لدي فكرة أريد أن أعرضها عليك.
- افتح كل النوافذ، وجدد هواء الغرفة، ثم اتبعني إلى الصف الخلفي. معي هنا قنينة معتقة، لا تقارن بأرمنياك.
- الآن إليّ بالفكرة.
- الفكرة تتلخص في أن الوطن بأكمله عبارة عن أسرة واحدة. الروس يعرفون جيدًا أن كلمة وطن تعني بالروسية rodina؛ لذلك سنزرع بذرة العداوة والخيانة في هذا المجتمع الأسري بأكمله، سننثرها في أرجاء البلاد. وبعدها

تنتشر العدوى وسط أبناء الوطن، ستتفسخ الأخلاق في الدولة
بأكملها، وسينقسم الوطن إلى فريقين متحاربين يسهل علينا
التحكم فيهما. السلطة باللغة الروسية اسمها الوطن.

يهز الزائر القادم من براغ رأسه، ويقول:

- رائع، أنا مع هذه الفكرة. وأراها أمام عيني الآن: الوطن كله
منقسم إلى جبهتين متحاربتين! وبعدها كل بلدنا ستصبح
تحت سلطاننا. وسيحدث هذا يوماً.

أخيراً يتسم الزائر وهو في مكتب كولوشاك ويضيف:

- مكتبك جميل.

ثم ينظر إلى صورة ستالين، ويقول:

- رايبين؟

يجيب كولوشاك مؤكداً:

- نعم، هذه اللوحة رسمها الرسام الروسي الشهير رايبين.

محاضرة لطيفة. لطيفة للغاية، لكنها مجرد محاضرة. لديكم هنا
في برنو ميول استعراضية. كل ما قلته هنا نمارسه على أرض الواقع
في براغ منذ زمن، لكن رحلتي إلى برنو لم تخلُ من فائدة، كما أرى.
لف لي رايبين هذا بحذر، وأرسله إلى بارتولومسكا.

يقف بعدها كولوشاك، وهو ينظر إلى مساحة فراغ سيخلفها وراءه
رابين الطيب القدير بلا شك.

(لا تخلطوا بينها وبين الكرسي، المقعد الذي أجلس عليه هنا في
كواليس الرواية).

جيراننا هنا في برج ساكرامنتو اللاف من عائلة مانينج. يعيبيهم
أمر واحد: يحبون التقارب كثيراً. يكفيننا أن نستمع إليهم من وراء
حائط غرفة المعيشة وهم يتشاجرون، ويتبادلون قذف القدور
والطناجر على بعضهم. فأنا أسمعهم من وراء الحائط الذي يمنع
البشر من سماع نوبات غضب الجيران، لكنه لا ينفع مع الثعالب.
دائماً كلما فتحنا باب شقتنا يفتح أفراد أسرة مانينج باب شقتهم
فالتقي بهم، وهو ما يزعجنا بالطبع. في هذه الحالة نركب معهم
المصعد. وعندما يصطحبون كلهم معهم، وهذا يحدث كثيراً، يلتصق
الكلب المسكين بحائط المصعد المعدني البارد بعينين جاحظتين،
وهو ما يسعد صاحبه.

- أتعرفون، كلبنا، فيليب، لا يخاف من الدببة، وأحياناً يتوه في
ضواحي ساكرامنتو، لكن الغريب أنه يخاف منك يا سيدتي
الجميلة. عادة كلما خاف من أحد ينتحب، لكنه أمامك
يخشى حتى النحيب. نوع من الفزع الصامت. هل هذا يعني
أن نخشاك نحن أيضاً؟

يقول جارنا مازحًا، ثم يضيف:

- الأمر يستحق أن نتحدث فيه باستفاضة، لكن المكان غير مناسب هنا في المصعد، بين الطابق العشرين والطابق الأرضي؛ لذلك ندعوك إلى عشاء تعارف.

يعتذر لهم بافليك الذي يعرف جيدًا أنني لا أرحب بلقاء كهذا، ويتذرع بأننا دائمًا منشغولون بشكل كبير، وفي المساء نسقط من التعب، ولا حيلة لأحد في الحديث معنا.

- أخشى من أننا سنضطر يومًا إلى قبول دعوة مماثلة -يقول بافليك- لكن ماذا لو دعوناهم نحن عندنا. سيكون اللقاء في منطقتنا، وهذا يخفف من وطأته.

- موافقة، لكن بشرط أن نعرف مسبقًا ما يحبونه، وما لا يحبونه كي نأخذه في الاعتبار عند إعداد العشاء. وجبة كبيرة جدًّا، سيكون عليهم أن يأكلوها كلها، فترك بقايا الطعام إهانة للمضيف.

- ما هذا الهراء! لا يجب أن نجعل من الجيران أعداءً لنا، ساخطين علينا.

بقيت للحظات أقاومه قدر استطاعتي، لكنني عرفت أنني في النهاية سأراجع. كان بافليك على حق، الجيران هم الجيران، رغم أن حدسي الحيواني حذرنى منهم، وهو حدس أشد حكمة من أي حجج منطقية.

اندهشوا بسعادة عندما دعوناهم لزيارتنا. طهوت لهم سبانخ مع بطاطس محمرة ولحمًا مدخنًا. توقع بافليك أن شعبية البحار باباي تنعكس على حبهم للسبانخ.

لم تكن الأمسية معهم سيئة، لكنها كانت في غاية الملل. تحدث معهم بافليك بكل حماس، بينما اكتفيت أنا بالاستماع إلى نباح كلبهم فيليب من وراء الحائط، وبالطبع لم يسمعوا هم أي شيء. لكن أمسية السبانخ هذه لم تساعدنا كثيرًا. أصر الجيران على أنه حان دورهم في دعوتنا، ولا بد أن يردوا لنا هذه الدعوة على العشاء. انتابني الخوف من حلقة طويلة من زيارات متبادلة قد بدأت الآن، سلسلة لا تنتهي من التقارب، لكن بافليك أقسم إنه لن يسمح بهذا، عشاء آخر عندهم وينتهي الأمر. *šlus, end, fin, kančic filma*. لكني لو استمعت إلى حدسي، ولو أنصت إلى حديث السبانخ بدلًا من الإنصات إلى نباح فيليب خلف الحائط بالتأكيد كنت لن أقبل دعوة جارتنا هذه إلا إذا أخذوني إلى هناك مغلولة في سلاسل.

أكد لنا روي مانينج أنه سيعطي كلبه في المساء لشقيقه أيرنست مانينج. فيما يتعلق بطعام العشاء كانوا متعاونين، سألونا عن طعامنا المفضل. عرفنا أن مشويات على الطريقة الباريسية تنتظرنا هناك.

شعرت بتوجس شديد من لحظة استقبالهم لنا عند الباب. ارتدى

مانينج سترة مناسبة يرتديها الصيادون، وبلغ أذني وأنا عند عتبة الباب نفير الصيادين قادمًا من جهاز الموسيقى. لو أنني استمتعت إلى حوارهم عندها لعرفت أن مانينج مجرد موظف في السكة الحديد، لكنه في الوقت نفسه صائد مفتون بالصيد، وحدث ما حدث. دخلنا إلى عرفة الصالون عندهم، حيث ميداليات الصيد معلقة على كل الحوائط من حولنا، إنه معرض انتصارات مانينج التي يفخر بها. ثم رأيت جلد ثعلب معلقًا على الحائط، رأسه مدلى، أشعر وكأنني أرى كذلك الدم يتساقط من أقدام الثعلب، وعينيهِ الجاحظتين، رغم أنه ميت. تنظران ناحيتي... مباشرة.

جمدت هذه الصدمة أوصالي. جلست هناك لبعض الوقت لا أتحرك، أستمع إلى مانينج وهو يصف هجومه على ذلك الثعلب ليوقع به في الفخ، الآن قام من على طبقه، وتوجه ناحية الحائط، وأشار بالشوكة إلى آثار الحديد على جلده. يحكي حكاياته، ويقول إن الثعالب تعشق الحرية، وتفضل قطع أقدامها عن أن تقبع في سلاسل الحديد، لكنه قال بلكنة احتقار: لكنها لم تقطع أقدامها ولم تهرب.

هنا انتفضت، وبدلاً من الانقراض على رقبة مانينج كي أنهشها، انصرفت بعيداً عن الطاولة. فهم بافليك الأمر سريعاً، وصاح في السيدة مانينج: أين الحمام؟ ذهبت إلى الحمام حيث تقيأت على دفقات قوية.

أدرك بافليك بعد أمسية الصيد تلك أنني لن أستطيع البقاء في

السكن بجوار عائلة مايننج. استبدلنا الشقة في البرج الرائع، سريعًا دون تدقيق في الاختيار، بشقة في بيت رديء. لم يمض هذا التغيير من ذاكرتي ما عانيته منذ أمسية السبانخ، لكنني لم أمتلك الشجاعة الكافية لأن أتحدث مع بافليك في هذا الأمر، أخبره عن السبب الذي جعلني لم أسمع أي شيء من حديثه مع جارنا، من ذلك اللغو عن نجاحات أسرة مايننج في الصيد. فقد غطى نباح الكلب على حديثهم، كما قلت، لكنني لم أتحدث عن السبب الذي جعلني لا أصرف اهتمامي عنه، فقد تأكد من أنني أفهم ما يقول. في الواقع فهمت بعض كلمات نباحه. كانت كلمات إهانة ضمن حديث الكلب المطول، مثلما يحدث مع مسؤول التليغراف على إحدى السفن وسط عاصفة قوية، فلا يسمع إلا ندف أخبار؛ اتضح لي على الفور أن لغة الحيوانات تعود إليّ مجددًا. وظهرت على الشريط الأحمر على ظهري إشارة أخرى بأني أتحول مجددًا من امرأة إلى ثعلبة.

لسنا بالتأكيد أغبياء؛ عرفنا أننا بلغنا على شريط الشعر على ظهري عتبة، يختلف ما بعدها تمامًا عما قبلها. كان الأمر شبيهًا بما يحدث لكل البشر، يعرفون ما ينتظرهم في النهاية ورغم هذا يظل الأمل يراودهم في أن هذا لن يحدث عاجلاً، وأنه بعيد إلى درجة أنه لن يحدث، وكأنهم خالدون. عرفت أنا وبافليك أننا لن نوقف هذا الأمر، وأني في النهاية سأعود ثعلبة من جديد، لكن ظل الأمل يراودنا أن هذا لن يحدث قريبًا، وأن الأمر ربما سيتوقف عند هذا الشريط، لكنه لم يتوقف، كل يوم أصير ثعلبة أكثر من

اليوم السابق. يمكنني أن أبرر الأمور لبافليك كيفما شئت، لكن الحيوانات التي ألتقيها في المدينة -الكلاب، والقطط، والخيول التي تئن بفرسان على ظهورها، القردة المربوطة في السلاسل، النموس في الأقفاص على متن الحافلات والقطارات- كلها تلقي عليّ تحية الحيوانات، رغم أنني لا أجيها التحية.

أعرف أنني تهت بين البشر، وأن عليّ أن أنجو بنفسي منهم لأنني تورطت معهم في أمور لا قبل لي بها.

أحياناً، قبيل المساء، أذهب لحضور قداس في إحدى الكنائس التي تنتشر هنا في كل مكان، هناك رفع الناس رؤوسهم من التراب الذهبي إلى ذهب النجوم في السماء. هنا بدايتهم ونهايتهم: في البداية يعمدون أطفالهم هنا، وهنا كذلك ترتفع الصلبان، رمز موتهم. يلجؤون إليّ فقط لأمر آخر. لا أحمل في نفسي ذرة رغبة في الخلود. أذهب إلى سوبر ماركت في ميدان سيزار شافيرز للتبضع. أتجول بعربة التسوق وسط عشرات العربات الأخرى، لكنني لا أجد في نفسي أي أثر لرغبة نهمة في أخذ كل ما أستطيع، ولا أشتري سوى ما أحتاج إليه، ثم أعاد المتجر بأسرع ما يكون.

أخشى من أن فضولي مصوباً على ما حولي، أعجب بعيني ثعلبة فضولية من كل أفعال البشر. لم أعد أعرف منذ متى وأنا على هذه الحال، لكنني أخشى من أن علاقتي ببافليك قائمة فقط على حب الاستطلاع وعلى الصداقة. ما زلت أنظر بفضول وهو يقوم على رعايتي، وما يقوم به خلال كل هذا، لكن لا بد أن أعترف

أني رأيت الكثير، وسئمت منه إلى درجة كبيرة. بالطبع لم أخبره بشكواي هذه، لكنني لم أتحمل، وجربت الأمر في مكان آخر كي أقتنع نفسي إن كان هذا الضجر الجنسي هو نفور من بافليك وحده. أذهب مع بافليك إلى المسرح ودار الأوبرا، وكذلك إلى صالات الحفلات الموسيقية. أظن أنه يعتقد أن فيضان الثقافة البشرية سيوقف تراجعني عن الطباع البشرية. سألني بافليك ذات يوم ونحن عائدان إلى البيت من عرض مسرحي شهير: موت بائع متجول، عن رأيي في المسرحية. أجبته صراحة بأنها مسرحية مملة للغاية، لا أفهم ما المثير في هذا العمل. أجاب بانزعاج: هل أنت جادة! أجبته بأني بالغت في تقديري. كانت الأزياء جميلة، ومن الواضح أنهم بذلوا فيها جهداً كبيراً، وهو ما لا يبدو من الوهلة الأولى. ابتسم، وقال: دائماً ما أنسى أنك مخادعة صغيرة. ثم لطمني على ظهري، لم أتأذ كثيراً لأن على ظهري شريط شعر أحمر كثيفاً وكأنه وسادة تمتص كل الصدمات.

أردت أن أتحدث معه في أي جربت معايشة آخرين، لكنني تراجع.

عرضوا سيمفونية من العالم الجديد⁽¹⁸⁾ لأنتونين دفورشاك في كونشيرت هول ريفوار القريية من النهر، وهي صالة بافليك

18- السيمفونية التاسعة للموسيقي التشيكي الشهير أنتونين دفورشاك. (المترجم)

المفضلة للحفلات الموسيقية. أعرف أن بافليك أحياناً يشناق إلى وطنه الحبيب، ظهر هذا بقوة أثناء عرض دفورشاك الساحر في أمريكا. لا يعترف بهذا، لكنه تشيكي أصيل. انصرف من صالة الموسيقى في هدوء، صامت، نسي أن يسألني عن رأيي في الحفل؛ ربما خاف أن أقلل من الحفل بطريقة أو بأخرى.

أعجبني تركيز بافليك على عرض دفورشاك السيمفوني، فقد حاول أحد الحاضرين الذي جلس في الصف الذي خلفنا مخاطبتي أثناء العرض. أعطاني وريقة مع عرض بلقاء في فندق ليونز جيت. كتب في الوريقة ساعة اللقاء، غداً قبيل الغروب مع اعتذار شديد على جراته، لكن يود أن يتحدث معي عن زميلته التي ربما أعرفها.

لست ثعلبة غبية، أتمنى أن هذا قد اتضح في أكثر من موضع. زميلة دراسة وهمية، الأمر كله نزوة جنسية. كثيرة هي أعين الرجال التي تلاحقني أينما ذهبت، ويزيد منها فضولي اللعوب، استسلمت لتلك النزوة. في نفس المساء قلت لبافليك إنني ذاهبة في المساء إلى مدرسة اللغات لأمر هام، فقد وعدت نائب إحدى الشركات التجارية الذي سيسافر إلى المكسيك ليجري دراسة للسوق هنا، وسوف أراجع معه معلوماته عن اللغة الإسبانية. تلعثمت بالكلام وشعور بالذنب يعتريني، لكن بافليك كان ما زال غارقاً في سيمفونية دفورشاك، فلم ينتبه إلى تلعثمي، واكتفى بإيماءة موافقة.

كان واضحًا ما دعاني إليه الرجل، ودهش لتبويتي الدعوة. ربما كانت مجرد محاولة منه على سبيل المغامرة، والآن أدهشه أنها نجحت. ما أدهشه أكثر هو أنني تجاوزت موضوع زميلة الدراسة المزعومة على الفور، ودخلت في الموضوع مباشرة. رفضت التجرد من ملابس العلوية رغم إلحاحه، فما سيراه هناك غالبًا سيصيبه بعجز جنسي، لكنني في المقابل عريت نصفي السفلي، وعرضت فرجي أمامه برشاقة.

لا جديد؛ خاب فضولي، وغفرت لنفسني تلك السقطة. ود لو التقينا مرة أخرى، وألح في الطلب، لكن لا فرصة ثانية له عندي، ويمكنه أن يبحث عني في مدينة يسكنها نصف مليون نسمة، وتجنبت بعدها الذهاب إلى صالة الموسيقى المذكورة.

لكنني دفعت الثمن. راودني في تلك الليلة حلم، جاءني فيه الثعلب الأكبر موراليست، ومن بعده الملاك جبريل يحمل سيفًا مستعرجًا. ابتعد المسكين بافليك أيضًا، وبدأت أنا في المقاومة. اقترحت عليه أن تنتقل بعلاقتنا إلى مستوى أعلى، يكون فيها الجنس مجرد أمر عارض. فضلًا عن أننا لا يمكننا إنجاب أطفال. فقد يأتي هذا الطفل على شكل قنطور، أو أبي الهول، أو عروس البحر، أو مينوتور: رأس بشري، وجسد ثعلب - رأس ثعلب وجسد بشري.

عرف بافليك نساء بعدد شعر رأسه، رغم هذا مثل لقاءه بي سهمًا في القلب. ما زلت أحبه، ونحن صديقان، ولا أريد له أن

يعاني، فتركته يضاغمني من وقت لآخر. كلما أشبع رغبته جثا
بمشاعر جياشة، وشكرني والدموع في عينيه. ربما عليّ أن أسجل
ملاحظات كي أكتب يوماً ما مذكرات ثعلبة عن أولويات البشر
ونقاط ضعفهم.

ساعات تدريسي للإسبانية في مدرسة اللغات أكثر من ساعات
الفرنسية لأن الإسبانية الأمريكية حاضرة هنا في كل مكان. ولا بد أن
أعترف أنني أفضل تعليم أبناء الإسبانين عن غيرهم. أستمتع معهم
بروح الدعابة، كما يقول بافليك.

- سينيورا، من أنت؟

- ماذا تقصدين أيتها الحسنة؟

- أقصد أنك لست أنت في الحقيقة. يليق بك، على سبيل
المثال، العمل في السيرك.

انفجر الأطفال في الضحك، لكن الفتاة التي قالت لي هذا بدت
جادة.

- وكيف يليق بي؟ أن أدرب الناس على طريقة السير على
الحبل؟

- لا أقصد هذا. يكفي أن تظهرني هناك في الحلبة.

كان لا بد أن أرفع كلتا يدي كي لا يحدث في الفصل هرج ومرج
من جديد.

- لا بد أن تشرحي لي ما تقصدينه، يا صديقتي.
- أتعرفين، يا سيدتي المعلمة، أنت لست في حاجة حتى إلى أن تظهرني في الحلبة.
- أشكرك، لقد طمأنتني.
- سيسعدون بك في أي مكان تظهرين فيه. نحن نسعد كثيراً برؤيتك. أتعرفين، يا سيدتي المعلمة، أنت رائعة الجمال، مثل الأميرات الفاتنات اللاتي أصابتهن اللعنة وتحولن إلى حيوانات....

علقت الكلمات في فمها، فأكملت نيابة عنها:

- حيوان جميل ملعون في هيئة معلمة؟
- الغريب أن الفصل عمه الهدوء الآن. لو سقطت في هذا الوقت
إبرة على الأرض لسمعنا صوت سقوطها جميعاً. أنهيت الحوار،
وقلت:

- حسناً، أنفق معك. افتحوا كتاب القراءة على صفحة رقم ستة وعشرين، وستقرأ أنجيلا قصيدة كارلوس فوانتس.

حتى أطفال الفصل عرفوا هويتي. يروني أرقص في حلبة واحدة مع ثعالب على رؤوسها قبعات حمراء في سيرك زفيزدا. بعض الأطفال في سن بعينه نابغون. يرون ما يختبئ تحت القشور، لكن متى ستسقط عني هذه القشرة؟

لا يسقط حتى الآن سوى الأوراق. بدأ الخريف، لكن خريف عادي، بلا أي دراما، باستثناء الألوان الكثيرة التي تنتشر في منتزهات ساكرامنتو، وحدائقها، ومنتزهات الغابات، والغابات الصغيرة، والطرق المحفوفة بالأشجار. اصفرت المدينة كلها الآن واحمرت، وبهتت، ثم سقط هذا الركام الملون على الشوارع، والأرصفة، وطرق السيارات، لكن لا بأس، الأشجار والشجيرات تبدل ثوبها استعدادًا لمواسم جديدة.

الحيوانات التي تدور حول المدينة طوال العام، ولا تدخلها إلا نادرًا، الآن تهجم عليها، صارت في كل مكان تقريبًا. أشدها وقاحة هي التي تنظر إلى السوبر ماركت، وتدخله، وتتحرك وسط أقدام الزبائن. فصول الشتاء هنا غالبًا معتدلة. يقال إن شتاء ساكرامنتو هو صيف موسكو البارد. رغم هذا فالحيوانات الآن، في فصل الخريف، تستعد للشتاء، تخزن الطعام، تأكل بشراهة وكأنها تستعد للصقيع. بالطبع لا خوف من أي صقيع (جائز بالطبع أن يسقط) لكن الحيوانات تستعد له، يستجيبون لفطرتهم التي تتوقع أن يسقط.

الثعالب هي بالطبع أكثر الحيوانات وقاحة. يظهر كثير منها هنا في مهرجان الثعالب وقت الخريف، كثيرًا ما ألتقي بلصوص الشوارع هذه في أي مكان بالمدينة، وكلما رأني ثعلب منها يقف، ليس لأنه خائف مني، أو هاله شكلي كما كان يحدث حتى وقت قريب. بالعكس، ينتظر أن أقرب منه، لكنني أتجنب الاقتراب،

وأولي دبري على الفور. أيتها الشقيقة الصغيرة، أيها الشقيق الصغير، تعرفون أنني من عائلة الثعالب، وتعرفون أنني أعرف هذا، لكن حاولوا في الوقت الحالي الاستغناء عني. أشكره دون أن ألوح له أورفوار بذيذ الثعالب الذي أفتقده الآن (في الواقع لا أفتقده، ولا أتطلع إليه).

يرى بافليك ساكرامنتو على نحو مختلف. يؤكد أن في برنو كذلك كثير من هذه الحقائق العامة، وطرق الأشجار، والحدائق، والغابات. ربما ألوان خريف ساكرامنتو أكثر تنوعاً من خريف برنو، وهو أمر تافه. مشهد الخريف يستدعي الحنين في نفس بافليك.

ذهبنا في هذا الخريف إلى بار بينتش مي الذي يشبه كثيراً بار ميونخ الذي التقينا فيه أول مرة. نظفنا أحذيتنا جيداً، وخلصناها من أوراق القيقب، والذلب، وغيرها من الأوراق الملونة، ثم توجهنا مباشرة إلى طاولة البار، لوحة عتيقة معلقة فوقها. أستطيع أن أوكد أنها من النحاس، سفينة تجارية وسط العاصفة. وعاصفة مماثلة في خاطر بافليك.

أسأله:

- هل عاودتك ذكرى القبطان كوشنا الحزينة؟
- من أين لك بهذا الاسم؟
- المعذرة، أخطأت الاسم، ميشنا. القبطان ميشنا بالطبع

- الذي تعتبره أباك، مربيك، الحارس الأمين الذي تبناك.
- كان بالفعل أبي الحقيقي. لم يكن له ولد، فصرت ولده.
 - أفهم هذا. أفهم أن هذا التبني كان أعظم أبوة حقيقية.
 - ربطتنا ببعضنا علاقة قوية: إلى أن يفرقنا الموت! والآن أعرف أنهم انتبهوا إلى هذه العلاقة فتخلصوا منه بلا رحمة.
- أخبرتني بهذا من قبل. وعندما دفنوه وقفت للحظات وكدت تقفز عليه، لكنك لم تفعل. صرت الآن أعرف الكثير عن البشر:
- الإنسان في النهاية لا يفعل كل ما يفكر فيه، لكني أتفهم هذا، فمن الغباء أن ترمي نفسك وراء ميت في قبره.
 - ما الذي شربناه في ذلك اليوم؟ في بار ميونخ. آها، تذكرت، لم أشرب شيئاً في ذلك البار. تعرفت عليّ هناك بصفتي نادلة جميلة، لكننا الآن سنشرب. جين مع تونيك، ما رأيك؟
- أعرف أنا أيضاً، أعرف هذا الرابط القوي. اتخذني الزعيم كذلك ابنة له، لكنه -على عكس ميشنا- لديه أولاد، ولدان وابنة واحدة، لكن أمله خاب في ولديه، وفي ابنته أيضاً؛ فقال لي إنه اختارني لأكون ابنته الحقيقية، من صلبه، لكنه في الواقع أراد بهذا أن يربطني به برباط قوي كي يستطيع استغلالني. كنت أداة مناسبة لتصفية رئيس الوزراء البريطاني نظراً لما أتمتع به من خبث البشر، وغريزة الثعالب. كنت مجرد أداة، لا أكثر. كل منا كان مجرد أداة لا أكثر، أداتان التقيتا صدفة أثناء أداء المهمة. يقول

الألمان إن الفرصة هي القدر، بينما يقول الروس إنها الأقدار. فالتقينا ببعضنا، صدفه كان لا بد أن تلتقي بصدفة أخرى. **nul ne peut ...éviter sa ⁽¹⁹⁾destinée**

امتد لقاؤنا في بار بينتش مي حتى ساعات الصباح. كنا في حاجة إلى أن نتحدث في كل الأمور الهامة لآخر مرة. اتصلنا هاتفياً من البار في ذلك الصباح لنعذر عن الحضور، أنا بمدرسة اللغات حيث أدرس الفرنسية، واعتذر بافليك عن أولى المحاضرات في قسم اللغة الألمانية الذي التحق به الأسبوع الماضي. عرفوه في قسم اللغات السلافية على أنه روسي نابغة يعول عليه، فتساهلوا معه في قسم اللغة الألمانية في مسألة الالتزام بالمواعيد المعروفة عنهم. وتقبلوا اعتذاري أيضاً في المدرسة بعد تنبيه واضح.

الأسوأ هو طريق العودة من امرأة إلى ثعلبة الذي بدأ بطيئاً، وينتظر أن يتسارع في أي يوم. تراجعت قدراتي البشرية، وتزايدت في المقابل صفات الثعالب. فقدت مقابل كل صفة من صفات الثعالب واحدة بشرية. عندما تأكدت -على سبيل المثال- أنني عدت أرى في الظلام، وأثناء الليل، لم يدهشني أنني صرت فجأة لا أعرف صيغة الماضي البعيد في اللغة الفرنسية. وعندما صرت أجيد القفز خلف سائق دراجة نارية وهي تتحرك نسيت في صباح نفس اليوم طريقة التعامل مع رؤسائي في العمل. في الواقع لا أعرف لماذا قفزت خلف سائق دراجة نارية بالتحديد

19- لا أحد يستطيع تجنب مصيره. (المترجم)

بينما إساءة التعامل مع رؤسائي في مدرسة اللغات عقدت حياتي إلى درجة كبيرة ولأسباب تافهة. إنها سوق المقايضة: مهارة بشرية بسيطة مقابل أخرى ثعلبية. كنت أود أن أتجنب المرور بمثل هذه السوق.

هطلت الأمطار على مدى يومين في ساكرامنتو بلا انقطاع. أمطار ساحرة، جميل أن ترى المدينة من خلف ستار أمطار الخريف. باستثناء أمر واحد وهو أنني صرت مثل فرخة مبلولة خلال أيام المطر لأنني نسيت تمامًا كيف أستخدم مظلة المطر. هرولت ناحية حاوية قمامة مواربة، وبحدس ثعلبة استطعت بصعوبة العثور على كيس حبات حلوى شهية مفوض.

أنا بالتأكيد أبالغ بعض الشيء، لكنني حاولت إخفاء هذه العلامات أمام بافليك قدر استطاعتي (ظهر بعضها، ثم سرعان ما اختفى، مثل مظلة المطر التي عرفت بعدها كيف أستخدمها). عرف كل منا أن الأمر لن يتوقف، لكن كلانا ظن أنه قد توقف عند هذا الشريط على ظهري. لاحظت بالطبع أنه يرشقني بنظرة متفحصة في كل لحظة، ولأنني عرفت كذلك أنه لن يستطيع المرور معي إلى عالم الثعالب، فقد حاولت على الأقل ألا أتركه غارقاً في أحزانه، وأشاركه أيضاً أفراحه. أقصد بهذا -على سبيل المثال- أنني قررت الانصياع لرغباته رغم أن مضاجعة البشر لا تعجبني على الإطلاق، وتزايد نفوري منها يوماً بعد الآخر. كلما أشبع رغبته أستلقي بجواره صامتة كي يظل موتور إشباع الرغبة

يعمل للحظات دونما إزعاج، لكن أمرًا ما أزعجه:

- لماذا تعتدين كف يدك اليسرى باستمرار؟ يراقب هذا الأمر منذ زمن.
- أنا لا أفعلها طوال الوقت كما تظن.
- افتحى كفك إذا.
- لا أستطيع الآن تحديدًا. أشعر بأصابعي متشنجة.
- لا بد أن نفعل شيئًا حيال هذا. التشنج ربما يحتاج إلى زيارة طبيب أعصاب، أو أي شخص يفحص أعصابك، وأوتار يديك.
- من فضلك، لا تشغل بالك بهذا الموضوع.
- نظر إلى كفي مجددًا، ثم توقف بعدها عن متابعة الأمر.

أفضل الجلوس على مقعدي، أتابع حكايتي من ثقب في ستارة تفصل الراوي عن شخوصه، لكنني هنا كان لا بد أن أقف، وأذهب إلى الكولونيل هرد، وقاتله المأجور وهما في طريقيهما سعيًا وراء العميل المزدوج سوباك. الغريب أن الكولونيل هرد بصفته مديرًا أظهر شيئًا من الخصوصية. أظهر مخاوفه من الرحلة، لكن ما إن خطأ فيها خطوة واحدة استيقظ في داخله إنسان آخر تمامًا. أدار القاتل الخطير بيد قوية لا تهتز.

جاء جزءًا كبيرًا من العالم، يتتبعان الآثار، إلى أن بلغا ساكرامنتو ذات يوم. لم يفكر أي منهم على الإطلاق في أنهما بلغا مقصدهما. كانت ساكرامنتو بمثابة محطة روتينية. مدينة سيمشطونها، ثم ينتقلان إلى البيت التالي، كما يقال. من ضمن هذا الروتين أن حضر هرد حفل السيمفونية التاسعة لدفورشاك في إحدى صالات الموسيقى. لا جديد: السيمفونية التاسعة لدفورشاك، سلم مي الصغير، أوبوس 95، من العالم الجديد. كانت هذه السيمفونية في ذلك الوقت من أكثر المعزوفات شهرة في كل أنحاء العالم. رآها في السويد، وإيطاليا، وأستراليا. لم يفت هرد أن يرسل القاتل العتيد إلى هناك. هذا ما حدث. فهذا القاتل أحب الموسيقى أكثر من رئيسه. تعرف القاتل على سوباك في قاعة الموسيقى كما عرفه من مجموعة الصور. استبدل على الفور تذكركه مع رجل آخر ليكون قريبًا منه. عندما تأكد من أن الحسنة الجالسة بجواره زوجته، حاول مغازلتها، ونجح الأمر.

توقع أن يعرف منها تدرجيًا مكان إقامة سوباك، وأي معلومات تساعد في تصفيته بطريقة غير لافتة، قدر الإمكان. يستطيع القاتل الآن أن يميل على كرسي سوباك من الخلف، ويدس في ذراعه حقنة إستركنين، ثم ينصرف سريعًا. تلك الحقنة من تجهيزاته الأساسية، لكن تصفيته على هذا النحو ستفسد الحفل الموسيقي، ولا يريد أن يكون سببًا في إفساده؛ إنه ذنب لا يغتفر

لقاتل مثله؛ لذلك قرر اختيار الطريق الأطول، دون المساس بالسيمفونية التاسعة لدفورشاك. استجابت له زوجة سوباك الفاتنة. لم يحاول انتزاع أي معلومات منها أثناء أول جماع. فهذا لا يليق، لكنه كان واثقًا من أن الفرصة سانحة في لقاءات تالية. المفاجأة أن الحسنة فقدت رغبتها في أي لقاءات أخرى.

لم يعتبر هرد وقاتله الأجير فشلهما مع السيدة الحسنة كارثة بأي حال. ها هما قد عرفا بوجود سوباك في ساكرامنتو، ولن تكون ملاحظته مشكلة أو اقتناصه في أي شارع وسط المارة حيث سيتبدد الحدث وسط العابرين، أو مثلًا على دكة في منتزه صغير هادئ. شغلت هرد فكرة أخرى. انتبه إلى أنه بمجرد أن يتخلص من سوباك ستنتهي رحلته المثيرة، وسيكون عليه العودة إلى وطنه الحبيب. ماذا لو ترك سوباك على قيد الحياة، وواصل بحثه عنه في كل القارات، وأرسل تقاريره المنتظمة حول رحلته بحثًا على العميل المزدوج، وأن البحث عنه ما زال جاريًا، ويرصد في تقاريره دائمًا آخر أخبار الإمبريالية المعاصرة بصفتها أعلى مراحل الرأسمالية، ويستغل حسابًا مفتوحًا للبحث عن عملاء أمن الدولة في الخارج، ولكي يوثق قراره هذا نظم تصويتًا فجاءت النتيجة: صوتان موافقان، ولا صوت معارض.

القاتل المأجور الآن مع رئيسه في طريقهما إلى ليما الرائعة في بيرو. المضيفة تقدم لهما الخبز الشهي مع كريمة فينديه التي يقدمونها على العشاء، ثم اختتمته بشمبانيا بينما الطائرة

تغرق في ليل رصعته النجوم فوق قارة أمريكا الجنوبية، وبينما استسلمت غالبية المسافرين لوسن معسول أخذ القاتل يحكي لهرد عن تفاصيل لقاءه الغرامي بتلك السيدة الحسنة.

قال القاتل:

- لا أعرف حتى اسمها. لم تتمكن من التعارف بأسمائنا رغم أنني استعددت لهذه المناسبة باسم مستعار: فيرومير زاوولين. كل ما دار بيننا كان غريباً. لم تسمح لي بالاقتراب من الدفة وسط هذه الرحلة العاطفية، وتولت هي القيادة. خلعت ملابسها بكل خفة، لكن تخيل: عرت نصفها السفلي فقط، ولم تسمح لي حتى بتحرير أربطة نصفها العلوي، قبضت فوراً على أصابعي. ربما تعرضت لعلمية جراحية، سرطان ثدي أو ما شابه. احترمت رغبتها، لكن عندما مررت يدها على ظهري وكأن في كفها فرشاة ناعمة. نظرت إلى هذه الكف أثناء تحريكها لها. رأيت فيها على أضواء شموع الفندق الكبيرة ما يشبه الزغب، شعيرات حمراء أرجوانية. كان في كفها هذه وبر كثيف نابت لونه أحمر.

سيتوقف الراوي المتشدد عند هذا الحد، بينما القاتل يصف لهرد تفاصيل مثيرة في تلك الحسنة العجيبة، ويصور كل التفاصيل الحميمة فيها. رغم أن هذا مخالف لقواعد الحكيم الجيدة، أي الانصراف بينما الحكيم في أشده، لكن ليس أمامكم سوى تقبل هذا الأمر.

عندما نبت الشعر الأحمر في كف ذراعي الأيمن أيضاً لم أستطع إخفاءه عن بافليك طالما لن أرتدي القفازات في غرفة النوم، لكن ما أدهشني أنه تقبل الأمر بسعادة، حتى إنه طلب مني أن أدلك ظهره طويلاً، طويلاً جداً بكفي هذه كلما تضاجعنا.

بالطبع تجنبنا الخوض في هذا الأمر، رغم أن كلانا عرف أن النهاية تقترب، وصارت على الأبواب. صحيح أن العلامات الواضحة اقتصرت على ذلك الشريط على ظهري، وعلى كفي المشعرة، لكن الأمر اتخذ منحى آخر. بدأت فجأة تتفسخ ذاكرتي القوية التي طالما اعتبرتتها حافظة لي وكأنها مخزن باروكي ضخم يضم مخزون الكلمات في عدة لغات.

انتابني شعور بأنني أينما ذهبت تتبعثر ذرات الكلمات من هذا المخزن. وصرت أفهم لغة الحيوانات أكثر من ذي قبل. كثيراً ما عجزت عن منع نفسي من مبادلة الحديث مع بعض الحيوانات، مثلاً مع سنجاب عبر النافذة وهو يتنزه على بالوعة الصرف.

لاحظت بعدها في المرآة أن وجهي الآن قد تغير قليلاً. كلا، لم ينبت فيه زغب أحمر، لكن تبدلت قسماته قليلاً. لم أهتم كثيراً للأمر في البداية، لم أتوقع أن الأمر أسوأ مما ظننت. توقفت في الكلية لأنني كنت على موعد مع بافليك لتتحدث فيما سأشتريه؛ لأن زملاءه سيأتون إلينا للاحتفال بمرور أول عام له على وجوده

في القسم معهم. بافليك شخصية محبوبة جداً في القسم، ليس فقط لمستواه العلمي والتربوي. كلما وقع أحد زملائه في ضائقة كان يكفي أن يلجأ إلى بافليك فتنحسن الأحوال. تحدثت مع أحد زملاء بافليك في الكلية، وكنت أسميه لشيتشكا⁽²⁰⁾؛ لأنه جاء مرة لزيارتنا، وعند انصرافه انتعل حذاءه بمساعدة ملعقة صغيرة. ثم دسها في جيبه، وكاد ينصرف بها. طلبت من لشيتشكا أن يستدعي زوجي، لكنه وقف أمامي ينظر إليّ، ثم سألتني: من أقصد. لم يتعرف عليّ.

ملأت السلة بما لذ وطاب، ثم أعددت كل شيء بعناية لهذه الأمسية الاحتفالية التي -دعوني أترف- مثلت الكثير لكليتنا، رن الجرس، وجاء أول زميل يحمل باقة زهور كبيرة، وطلب مني أن أعطيها فوراً للسيدة سيلفا، طلب مني قبلها أمراً أن أحمل معطفه وأعلقه على حمالة الملابس. عرف بعدها أنه أخطأ، وأنه طلب ما طلبه مني بصفتي خادمه، فاعتذر بشدة، وقال إنه يستحق الجلد بالسوط على ما فعله. لم أسمح له بهذا بالطبع، لكنني في المقابل وضعت له كثيراً من الفلفل في الطعام، وأخذت أنظر إليه في تله وهو يتظاهر بأن الطعام طيب.

أردت أن أوّجل ما ينتظرنني ولن يخطئني، ولو لبعض الوقت، أن أوقف زمن العودة إلى طبيعتي كثعلبة. عندما لاحظ بافليك أنني أطلب المستحيل أقنعني بالأبتئس: سيحدث الأمر لا محالة،

20- بالتشيكية lžiĭka ومعناها ملعقة صغيرة. (المترجم)

المهم أن يعود لي جسد الثعالب، وأن أشعر فيه بارتياح.

قلت له: هذا ما سيحدث، لكني أنتمي لك أنت، أنا زوجتك، يربطني بك وعد الزواج.

هذا ليس مهمًا الآن. سأعرف بعد أن ترحلي أنك سعيدة، وأنت عدت إلى المكان الذي هو بيتك. كنت محظوظًا أن التقيت بك، وسوف ترافقني هذه السعادة طيلة حياتي.

تغرغت عيناه، لكنه أبدًا لا يمكن أن يعترف بهذا. لم يرغب في أن أحزن من أجل شيء لا يستحق، كما قال.

لا بد أن أعترف هنا أنني في الواقع لم يشغلني أن بافليك عاجلاً سيرحل من هنا، ما شغلني هو أنني لم أنزعج من هذا الأمر. أهو دهاء فوق طاقة الثعالب؟ هكذا بقيت بقدم في دهاء البشر، وبقدم أخرى في عالم الثعالب البسيط، لكننا نحن الثعالب نعرف هذه القاعدة تمامًا ولن ننسى: عندما نتعاهد مع أحد نصبح مسؤولين عنه، ولا نهجره أبدًا، تحت أي ظرف.

نبت الشعر على قدمي أيضًا. استيقظت يومًا ووجدتها مشعرة، والآن أشعر كلما اتسع الحذاء لقدمي أنني أمشي على وسادة.

كان لا بد أن أتوقف عن التدريس في مدرسة اللغات بعد أن هجرتني اللغة الإسبانية والفرنسية، وعمًا قريب لن أفهم منهما أي كلمة. صار لبافليك مكانة مرموقة في الجامعة، وأصبح رئيس قسم اللغة الروسية، وتعاظمت مسؤولياته في قسم اللغة

الألمانية، فضلاً عن أنه يترجم ويرافق الوفود. اكتفينا بدخل بافليك، وقصرت اهتمامي على شؤون البيت. حتى اللغات التي أتواصل بها مع بافليك، وهي الإنجليزية والروسية لم تعد كما كانت. وقریباً سأتواصل معه فقط بيدي وقدمي، إن لم أقل ببرائتي. مرة أخرى أبالغ بعض الشيء، لكنني لم أتجاوز كثيراً.

هكذا وجدت نفسي على المحك، على تلك الحدود الفاصلة بين عالم الثعالب وعالم الإنسان، على حدود عالم البشر وعالم الحيوان، على الحدود التي خبرت فيها سيطرة الإنسان القاسية على الحيوانات. أشعر على الفور بانتصاب شعر ظهري، ويدي وقدمي كلما رأيت أحداً في الشارع يتعامل بقسوة مع الحيوانات.

أعرف أن في ساكرامنتو مزرعة ثعالب ضخمة. يربونها هناك من أجل الملابس الفاخرة، ياقات أنيقة، وشالات، وأساور زينة، وقبعات، وسترات على الموضة. فهناك صناعة ضخمة قائمة على مزارع الثعالب. أعرف هذا جيداً، لكنني دائماً ما حاولت إغفال الأمر، لكن ليس في استطاعتي الآن التهرب منه. اتصلت بالمزرعة كي أعرف أسرع طريقة للوصول إلى هناك. استأجرت سيارة تاكسي، ورأيت أرضاً شاسعة مسورة، معسكر اعتقال الثعالب الضخم. هنا استدعيت غريزتي الثعلبية مصحوبة بدهاء البشر، وظهر منها مفتاح سحري يفتح كل الأقفاص، ويحطم الأسوار، ومعسكرات الاعتقال، وأطلقت سراح كل الثعالب، كل الياقات، والشالات، والقبعات، والفراء الذي لن يراه أحد في معارض الأزياء.

سرب ضخمة من الثعالب انطلق في الشوارع والبيادين متوجهاً إلى أقرب غابة. تدافع السرب، وزاحم المارة، وأغلق التقاطعات، وهدم أكشاك الشوارع، والدكاكين، ولافئات الإعلانات، واختلجت البيوت؛ اهتزت قواعد العالم الهشة. نحن الثعالب لسنا نكرة، وسنصبح ملء السمع والبصر... توقف أحد الثعالب وقال لي: أُلن تأتي معنا؟

لا أستطيع الآن. ما زالت عندي مهام أخرى هنا. لقد تواعدت مع أحدهم، وصرت مسؤولة عنه، فضلاً عن أنني لست ثعلبة كاملة بعد.
قال بافليك:

- فكرت بما أنك الآن على الحدود الفاصلة بين البشر وعالم الثعالب، وبما أنك تريننا الآن من منظور أوسع، وتبصرين ما لا نراه نحن هنا، أطلب منك أن تحدثيني عن البشر.

- ماذا تود سماعه؟

- أفضل ما في الجنس البشري وأسوأه، وأكثره بغضاً.

- أقدر على هذا، لكنني سأبدأ بما هو أسوأ. أسوأ ما في البشر هو السعي المحموم إلى السلطة. الذكر عندنا في عالم الحيوان هو الذي يمتلك قوة الذكر، ويظل الأمر كذلك طالما امتلك هذه القوة. ثم يحل محله حيوان آخر، لكن عندما التقيت بالزعيم لم أجده فحلاً كما كان، فقد فحولة الذكر

ورغم هذا لا يريد أن يتنازل عن سلطته، فأطلق آلة الموت على كل من ظن أنه يسعى لانتزاع سلطته، لكن حدث هنا أمر مبالغ. تصاعد اشتهاؤه المريض للسلطة. هكذا تقولون، أليس كذلك؟ أعجب بي واتخذني ابنة له. ثم تغلبت عليه، يا للأسف، تلك الشهوة الخسيسة، وقرر استخدامي كأداة للقتل. قد يتنامى في نفس أحدهم حرص سقيم على السلطة، حتى لو مشى متكئاً على عكاز، وتجدد وجهه، وسال لعابه، وأسنده الآخرون، رغم هذا ينشر الكراهية والحقد. إنها هبة سيئة، قدرة ملعونة تشل الجنس البشري، وتشوه هذا الفصيل الذي يحتاج إلى ذكر فحل، حتى لو كان مجرد يرقة صغيرة.

- والآن أفضل ما في البشر. ما هو أفضل ما في البشر؟

- أفضل ما في البشر، يا بافليك، هي الصداقة.

مرت أيام ونحن معاً في حياة طبيعية وكأننا لا نخشى شيئاً. تلك كانت مجرد وقفة، فاصل، لحظة التقاط الأنفاس، ميزان سلم، عرفنا خلاله إلى أين نحن ذاهبان. فكرت في العودة إلى مدرسة اللغات لأنني شعرت أن الكلمات لم تعد تهرب مني، وانغلقت الفجوة التي انفتحت وتساقطت فيها الكلمات. اشتقت إلى فصلي مع أطفال المكسيك بعد تلك المزحة التي كانت بيننا، لكن بافليك لم يرد أن تأخذ الساعات التي أقضيها في المدرسة من حياتنا معاً، يكفيننا ما يقضيه هو من ساعات في الكلية لا غنى لنا عنها،

نسد بها حاجاتنا اليومية، ولا يمكن أن نستبدلها بما أتقاضاه في مدرسة اللغات.

بدأت أيام الشتاء، وهبطت الحرارة خمس درجات. أحضروا من متحف جوجينهايم في نيويورك مجموعة من اللوح التجريدية، ومعها عدة رسامين انطباعيين إلى جاليري ساكرامنتو (وهو ما ذكرنا بشهر العسل الذي قضيناه في باريس، وحملت على ظهري شريطاً أحمر كذكرى من هذه الرحلة). قضينا وسط هذه اللوحات نهار يوم الأحد بالكامل، ونحن على ثقة بأن هذه اللوحات هي منحني الخلود الذي يكفيننا أن ننظر إليه فقط.

ذهبنا كذلك لمشاهدة مسرحية ترام إلى محطة الرغبة، وفيلم ملكة إفريقيا، وفيلم كنز السيرا مادري. كما رغب بافليك أن يستمع إلى سيمفونية الأجراس، وجزيرة الموتى لراخمانينوف. لاحظت أذنيه منتصبين من أثر هذا التوق الجامح. عزفوا سيمفونية رخمامينوف في قاعتنا المفضلة، قاعة الموسيقى قرب النهر، لكنني امتنعت عن التردد عليها منذ ذلك اليوم الذي خاطبني فيه ذلك العشيق العارض الذي ربما ما زال ينتظرني هناك. حكيت لبافليك عن حلم راودني بأن أحد رواد قاعة الموسيقى، عاشق عارض تحدث إليّ وما زال ينتظرني هناك. احترم بافليك رغبتني وهو العليم بنظريات فرويد، رغم استيائه الشديد. فأنتهى بنا المطاف مجدداً في بار بينتش مي بدلاً من قاعة الموسيقى.

فسرت له الأمر بأن أحلامي هي أحجار أبني بها عالمي: لو

أخذت واحداً من هذه الأحجار، ونزعته من المبنى سينهار كله.

أخذ كل منا يبني حياته من حصى الأحلام ونحن نشرب جين بماء التونيك، ثم سرعان ما يدمرها بمجرد قرعة بسبابته. اعترف لي بافليك أن هذا البناء وهذا الهدم هما على مستوى سيمفونية الأجراس وجزيرة الموتى لراخامينوف.

ثم حدث أمر ذكرنا بأن جبل الثلج الذي نبحر فيه يذوب تحت أقدامنا.

في ذلك المساء رافقني بافليك إلى صالون أزياء كبير حيث سلطت فيه أنظار العاملين كالعادة ناحيتي، وداروا من حولنا على نحو مزعج. بلية ابتليت بها، جسد امرأة جاء من أصل ثعلبية. وهذا مثال تحذيري: إلى أي مدى يجذب اللقاء المشؤوم للجنس البشري مع الثعالب أنظار الرجل كالمغناطيس.

دخل إلى صالون الأزياء فريق دعاية لتصوير فيلم لصالح صناعة الملابس. وانتبه إليّ أحد المصورين، فخاطبني بلطف وإعجاب، ثم سألني: هل تسمحين لي؟ ودون أن ينتظر إجابة مال على قدمي اللتين أعجبتاه وشرع في التصوير. هرع بافليك ناحيتنا، وأراد أن يرفس المصور في مؤخرته بخفة، في الوقت نفسه صرخ المصور، وتوقفت قدم بافليك قبل أن تصيبه. أنا كذلك عجزت عن أي رد فعل بعد أن هالني صراخ الرجل، ثم تحركت لكن متأخراً، بعد أن اقتنص المصور لقطته الخالدة.

أخذ المسؤولون عن الشكاوى يتفاوضون مع بافليك بكل حدة. بالطبع لم أشاركهم التفاوض؛ خرجت من القاعة، وانخرطت وسط الحشد. شرح لي بافليك لاحقاً أنه اضطر إلى أن يبيع لهم المشهد رغماً عنه، فلو لم يفعل كانوا سيستغلونه على أي حال، بعدها لا طائل من مقاضاتهم أمام المحاكم. على الأقل اتفق معهم على الشروط: أن يخفي هوية من فيه تماماً. بعدها ظهر المشهد في كل قنوات التلفزيون، ورأيناه نحن كذلك على الشاشة: على ساقى؛ من ركبتى وما فوقها، ظهر سريعاً شريط من الشعر الأحمر الأرجواني على ساقى اليسرى، بعدها بثانيتين شريط مماثل على ساقى اليسرى.

التمزوا كما وعودنا بطمس هويتي، ولم يظهر سوى ساقى، كانت تلك لقطة تلفزيونية سريعة، مشهداً ظل يظهر في التلفزيونات على مدى ثلاثة أسابيع إلى أن استبدلوه بحصان بحر قميء يمتص مصاصة ضخمة من إنتاج شركة **Ghose**.

توقفت عودتي إلى عالم الثعالب طوال الشتاء، ثم تسارعت من جديد. وكان أمراً مثيراً للسخرية أن يستبدلوا ساقى الأرجوانيتين بحصان البحر الكريه. ثم تلا مشهد حصان بحر بمصاصة مشهداً آخر جاب العالم بأكمله.

مات الزعيم. يقال إنه مات في منزله الريفي القريب من موسكو. ظهرت تفسيرات كثيرة عن أسباب موته، منها تفسير من الكرملين، وتضاربت الأسباب، وتداخلت، بعضها ينفي بعضها، أو

يصحها، لكنني لم أكرث بالزعيم. إنه مجرد صوت من ماضٍ سحيق لم أعد جزءاً منه منذ أن عرفت أنه لا يثق فيّ، وأرسل من يراقبني. فصلني عنه كذلك لقائي ببافليك. الآن لا أهتم سوى بما ينتظرني في الأيام القريبة التالية، العودة إلى طبيعتي كثعلبة.

تلا شتاء كاليفورنيا المعتدل ربيعها الأجل على مستوى العالم (رغم أن ربيع سيبيريا مميز هو الآخر). رغم هذا كدت لا أغادر البيت، وإن غادرته أغطي جسدي كله، من رأسي وحتى قدمي، وكأنني ملفوفة في قماط طفل كي أخبئ ثعلباً ينمو، ويمكن أن ينطلق فجأة بكامل طاقته في أي لحظة.

توطدت علاقتي ببافليك أكثر من أي وقت مضى، وتباعدت في الوقت نفسه. إنها لحظات الفراق. تخطيت فيها ذلك الفاصل الخفي بين عالم الثعالب وعالم البشر، ذلك الساتر الذي ما زلت أرى من ورائه الوجود البشري وكأنه خلية نحل منثورة. لم يبق لي من لغة البشر سوى كلمات قليلة تكفيني للتواصل مع ببافليك. وتقهقرت في نفسي عادات البشر وتصرفاتهم. وانبجست في قدمي أقدام الثعالب.

في الواقع لم تكن أقداماً، بل عاد إليّ ذيل الثعالب. أمر لا يعقل في أي امرأة. عندما رآه ببافليك لأول مرة أصابه سحر الغرابة، وسقط على مؤخرته يضحك، وأنا أيضاً جثوت على ذيلي النابت، وجلسنا على الأرض متقابلين، مستغرقين في الضحك، لكن للحظات قصيرة. لم يكن الأمر مزحة كما نتمناها. كان الذيل ما

زال في منبته، لكنه بالتأكيد سيظل ينمو ويطول...

كلما أردت الخروج من البيت، ونادراً ما حدث، كان لا بد أن أعود إلى زمن ارتداء الملابس الفضفاضة. أخذ بافليك مقاسي وأعطاه لأفضل ترزي في ساكرامنتو. أصيبوا هناك بالذهول من طلبه، لكنهم صنعوا لي جيبة تقليدية طويلة بمؤخرة منفوخة لافتة، لكن تاه شكلي وسط موضة النساء الغرائبية أحياناً في ساكرامنتو، أو هذا على الأقل ما تمنيتته.

ولأن طريق العودة إلى عالم الثعالب يثار مني الآن بطريقة ساخرة نظير قراري الجريء بالتحول من ثعلبة إلى امرأة صرت لا أعرف متى سيحين موعد عرضه اللعوب: قد يرقص لي هذه المرة كانكان بوجه أحمر. فغطيت وجهي ببرقع صغير.

لم يسعد بافليك كثيراً بتجوالي في المدينة أحياناً، فأحضر لي من مكتبة الكلية كومة كتب بكل اللغات التي كنت أجيدها تماماً منذ وقت قريب. بالتأكيد كان على حق بأن حصيلة الكلمات في تلك الكتب استطاعت تعويض الكلمات التي هربت مني، لكنني لم أعد أهتم لهذه الأمر. فتحت أول طبعة نادرة لرواية **Le Rouge et le Noir**⁽²¹⁾ من عام 1840، لكنني أغلقتها على الفور، لم تعد تعينيني مغامرات جوليان سوريل العاطفية.

21- الأحمر والأسود (بالفرنسية: Le Rouge et le Noir) هي رواية نفسية تاريخية في مجلدين بقلم الأديب الفرنسي ستندال، نشرت الرواية في عام 1830، وتحكي عن مغامرات البطل جوليان سوريل العاطفية. (المترجم)

فضلت التجوال في المدينة بذلك الزي المنتفخ رغم صعوبته
البالغة عن قراءة أفضل روايات القرون الثلاثة الأخيرة. وهكذا ودعت
عالم البشر رغم أنني صرت على قناعة بأني لن أحمل منه شيئاً إلى
عالم الثعالب، لن تبق منه أي ذكرى. كل شيء سيمحى سريعاً بلا
أثر. لم أعد أدعي أنني في ملاذ الثعالب سأكتب مذكراتي جاسوسة
في عالم البشر. أعرف بكل يقين أن كل ما هو بشري سيصبح غريباً
عني. غرسوني وسط البشر بطائفة من الكلمات، لكنني لن آخذ أيّاً
منها معي، ولا حتى أردوها. ولن أكون في عالم الثعالب أكثر سعادة،
فالسعادة كلمة لا يعرفها سوى البشر، والثعالب ليست أكثر سعادة
ولا تعاسة من البشر، لكنني على الأقل أود أن أحافظ على روح
المرح، روح الفكاهة، لكن حتى هذه ليست من طبيعة الثعالب.
آخر رسالة لي قبل عبور البوابة التي سأنفذ منها إلى عالم الحيوان
ستكون آخر مزحة لي: لآخر مرة أستلقي على ظهري، وأستغرق في
الضحك.

أهو إذاً فراق عالم البشر؟ زرت متجراً كبيراً للساعات حيث
يصنعون ساعات حوائط صغيرة وأخرى ببندول، وغيرها بأجراس،
وكذلك ساعات الأبراج. فيها ينفرط زمن البشر، ويمر، وهو
لا يعني في عالم الثعالب شيئاً. لب الفناء البشري قابع في
الساعات، قرأت هذه العبارة يوماً في أحد الكتب. وقفت بجوار
حائط هناك متكنة على مؤخرتي المنتفخة، وأطلت النظر فيما
حولي. لم ينتبهوا إلى وجودي، وكأنني لست معهم. أحضر لي
أحد صناع الساعات فنجان قهوة عندما حانت استراحة الطعام،

وسألني إن كنت أريدها بالرم الذي لا يمكنهم شربه في وقت العمل، فالدقة هي قانونهم الرئيس، بينما يجوز لسيدة مثلي تشاهدتهم أن تشربه. فتناولت الفنجان بيدي ذات القفاز بطريقة خرقاء، فانزلق منها، وانكسر. قال لي الساعاتي وهو جاث يجمع كسرات الفنجان: الأمر بسيط، لكنني كنت أعرف أنه ليس بسيطاً، ومن الطبيعي أن يحدث. حضرت في كاتدرائية السر الأعظم القديس قبل أن ينتهي، واستمعت إلى صوت الأرغن وفريق الغناء، لكنني انصرفت قبل نهايته، كدت أخلع قفازي عند المدخل بجوار حوض من المرمز للماء المقدس، ثم انتبهت إلى أن الماء المقدس لا يليق بالثعالب.

تجولت لبعض الوقت في ساكرامنتو، مشيت على قدمي الموبرتين وكأننا وسادة، لكنني لم أعد أهتم بالأمر، وتساوت عندي كل الأشياء.

مرت آخر ساعات قبل موعد عودتي إلى هويتي الثعلبية بإيقاع حثيث. صرت ثعلبة جميلة من جديد، فيما عدا شيء واحد، أمر صغير سأحدث عنه بعد لحظات.

استأجر بافليك سيارة كابريوليت رائعة، مثل سيارة عندنا في البيت في تصميمين: واحدة في غرفة النوم محفورة في الخشب، ثم أخرى أصغر منها على مكتب بافليك في غرفة المكتب.

على تخوم المدينة الشمالية، بعيداً عن المطار تبدأ غابة يقولون

عنها إنها بلا نهاية مثلما العجلة الدوارة لا تتوقف عن الدوران، جزء هنا وجزء هناك، إنها عجلة التحول، يا بافليك، إلى لقاء آخر (هراء! لن يكون هناك أي لقاء آخر).

فتح بافليك باب سيارته الصغير، انزلقت منه، وتوقفت عند أول شجرة انتظر: تعال! لا تخف! اقترب، ووقف على أطرافه الأربعة، بإشارة مني، تحرك عدة خطوات، ثم لمس بأنفه أنفي. أنف امرأة، الشيء البشري الوحيد الذي بقي لبعض الوقت في وجه ثعلبة. وقفنا هنا لحظات نتلامس بأنفينا، ثم سقطنا على ظهرينا، وضحكنا، أمعنا في الضحك حتى شهقنا، ضحكنا لآخر مرة.

قلت له: المعذرة، لا بد من الانصراف. ثم عدوت.

قرية الزعيم في كونسييف، ليلة الرابع من مارس 1953.

باريا تميل على الزعيم الذي يحتضر، وتسمعه يقول: اكتبني وصيتي. تهرع وتعطيه قلمًا، وقطعة ورق. ينظر إليها في دهشة، ثم يكتب: كل أملاكي العينية والفكرية أهبها للثعالب التي جاءت منها ابنتي التي لن أنساها. سأظل أحب الثعالب إلى أبد الأبدين. واجب حراس الغابات والأحراش هو حماية جنس الثعالب، من الآن وإلى الأبد. هذه هي وصيتي.

في الثالث والعشرين من نوفمبر 1953 تسقط باريا على ركبتيها، وتطلب العفو من خروشوف. معها وصية الزعيم، وتريد

أن تستبدلها الآن بحياتها. الوصية في علبة دواء، مدسوسة في مؤخرة باريا. يخرج الجلاد علبة الدواء، وينظفها بمنديل، ثم يعطيها لخروشوف، ويطلق النار على باريا.

على الفور يقرر خروشوف أن الوصية مشفرة بكل تأكيد، وأن خلف الشفرة سلاح الزعيم السري، السلاح الذي سيفجر حرباً عالمية ثالثة، فيطلب تحليل شفراته، لكن بلا أي نتيجة. لم يندهش، لكنه لن يترك الأمر يمر هكذا. إنها مسألة وقت.

لم يبق الكثير لنقله، لكن دعونا نضيف الآتي:

لم يقدر بافليك على العيش في ساكرامنتو دون سيلفا. كل ما فيها يذكره بها: رغم أنها مدينة كبيرة، لكن الغابات تطوقها وتنتشر في أنحاءها. بدا عليه أثر الحزن الذي سقط فيه، وكأنه سقط في بئر مظلمة لا يسمع فيها إلا صوته وهو يشرح لطلاب اللغة الألمانية والروسية تفاصيل قواعد اللغتين.

مر وقت طويل دون أن يرى زوجته، ظن كل من حوله أنها هربت منه، ولم يدهشهم ما فعلت. امرأة حسنة فاتنة مثلها تشعر بالتأكيد بمهمة مقدسة في توزيع جمالها على الرجال. فضلاً عن هذه القاعدة العامة اعتبروا أيضاً أن سيلفا شوهدت مع أحدهم في فندق ليونز جيت. وجاء دور موظف الاستقبال ليقول: عندما مرا بجواري بدا جلياً أن ذلك الرجل يُريها مجموعة من الفراشات وهو يتوجه معها ناحية المصعد. (نعم، إنه القاتل من سيمفونية

دفورشاك، يقول الراوي).

ماذا لو أنه أغرقها في حوش الاستحمام غيرة عليها، ثم قطع جثتها إرباً... لم يتركوه يكمل كلامه. كلام يعاقب عليه البروفيسور أبسيونسين من قسم اللغات الاسكندنافية لا محالة: بقيت ثلاثة أسابيع لا يبرح عتبة نادي البلياردو في الجامعة. بافليك لا يمكن أن يغرقها في حوض استحمام، ويقطع جثتها إرباً، فهو شخص حسب علمنا به محبوب للغاية، كلما تعرض أي إنسان لأزمة يكفيه أن يذهب إليه، ويحكي له فيتحول بافليك تلقائياً إلى معالج نفسي يمنح المعذبين السكينة. الراوي لديه تفسير ذكي لهذا الأمر. عندما بدأ حياة مشتركة مع سيلفا، كما رأينا، ودخل في أبعاد سحرية لطالما ربطت الإنسان والحيوان بعلاقات حتمية، حدث تحول في موهبة التآمر عنده التي قدرها رجال أمن الدولة، وحولته إلى النقيض البناء: صارت هبة ثمينة في تخليص الناس من مشاكل معقدة، وفك عقدها.

رائع أن يكون الإنسان محبوباً، والآن اتضح جلياً أن الانتماء إلى عائلة المهجر الروسية له فوائده. كررت أكثر من مرة، وقلت: الأسرة الروسية هي الوطن، وكلمة وطن بالروسية تعني أيضاً السلطة. وهكذا أصبحت أسرة المهجر الروسية مستعدة لعمل كل ما تستطيع من أجل بافليك.

صحيح أنهم لم يفهموا سبب رغبته في الذهاب إلى نيويورك، لكنهم تفهموا الأمر: الابتعاد قدر الإمكان عن الأماكن التي

ودعتها زوجته، والذهاب إلى أخرى قد يراها فيها مع عشيقها، لكن السبب الحقيقي هو أنه لم يعد قادرًا على البقاء قريبًا من الأشجار، والغابات، وكانت منهاتن هي المكان الذي سيرى فيه مكان الغابات ناطحات سحاب في كل مكان، وستكون بمثابة غابة يتوه فيها، إن أراد نسيان سيلفا.

ارتبط مهاجرو روسيا في ساكرامنتو بعلاقات متشابكة في نيويورك، لديهم مدرسة لتعليم اللغات الألمانية، والروسية، والفرنسية، وكذلك التشيكية، لديهم أيضًا في المدينة شقة صغيرة متواضعة. كان الوداع عاصفًا، ومؤثرًا، ودامعًا. عندما حطت طائرته في مطار نيوارك ليبرتي حمل في حقيبة يده زجاجة دموع الروس في ساكرامنتو. ثم انتقل من المطار بالقطار، ثم المترو إلى منهاتن خلال ثلاثين دقيقة. الشقة الصغيرة تطل مباشرة على فيرست أفينيه، تقع في قبو متواضع في ناطحة سحاب بيضاء مستطيلة، لكن في المقابل لم تحمل له الرياح القادمة من سنترال بارك لا رائحة أشجار الدلب التي تشبه رائحة الثعالب، ولا القيقب، أو الحور. فطابت له الإقامة فيها.

عبر التشيك الذين درس لهم اللغة الإنجليزية الأمريكية (في مدرسة بشارع فيفث أفينيه) مؤخرًا مختلف الطرق الوعرة، فارين من أرض يحكمها رجال الشرطة والمخبرون والواشون والشيوخيون المتعصبون. شعر بافليك بأنه مدين لهم، فكّر س كل جهوده في تعليمهم اللغة الأمريكية. لا شك في أنه قد عاد مما

يجوز أن أسميه المرحلة الأسطورية في حياته التي تعلم منها الكثير. كرس كل اهتمامه في تدريس الفرنسية في نيويورك، وهي اللغة التي تعلم كل خباياها وسحرها من بروفيصور ظبايل، واتسعت لها موهبة بافليك اللغوية رويداً، وتقبلها بكل سهولة. جاءته في منهاتن فرصة لتعليم الفرنسيين والفرنسيات فأقبل عليها بكل سعادة، علمهم الانتقال من لغتهم الأم الساحرة إلى الإنجليزية الأمريكية البراقة.

ثم رأى إعلاناً يبحث عن مخبر سري خاص. قرر أن يخوض التجربة رغم علمه بأنه ما زال لا يعرف نيويورك حق المعرفة، فمن خاف خسر. وهذا ينبهني بأن الخوف المرضي من الأشجار التي يذكره بعالم الثعالب قد فارقه بأسرع مما توقعت؛ لم يعد خائفاً من الذهاب إلى سنترال بارك.

وزراه الآن جالساً على دكة مع واحدة من طلبة اللغة الفرنسية (ناتالي كورلاتين، إن أردتكم معرفة اسمها)، ويخبرها برغبته في تجربة المخبر السري، فقد كان يوماً من رجال الشرطة، بشكل أو بآخر، وصرف نظره عن أي مصدر عمل آخر. حديث الدكة هذا اعتبره كل منهما تدريباً على الحديث بالإنجليزية، طريقة غير تقليدية، أكثر من مجرد محاضرة في قاعات الدرس. بافليك على قناعة بأن الأمر لا يتخطى هذا الهدف، لكن لو أراد أن يقنعني بهذا أنا أيضاً فعليه أن يدعو باقي طلبة مدرسة اللغات كذلك إلى

الجلوس في سنترال بارك أو في مكتبة مورجان.

عندما تسقط الأمطار فلا دكة ولا مكتبة، بل يتقابلان في المقاهي، ما يدعوني لأن أقول له: يا بافليك، ألا تتسرع قليلاً في الأمر، في موضوع التأقلم، والتكيف، والاندماج كي تعود إلى مرحلة الحياة الواقعية؟ وها نحن هنا. ربما لا يقتصر الأمر على مطارحة الفراش! ها هما في فندق شيراتون (بجوار جنة الفطائر). فندق رخيص، إن جاز لنا إطلاق وصف كهذا على فنادق نيويورك.

يا إله السماوات! (**Seigneur au paradis!**)، تقول ناتاليا -بلغتها الأم التي تراها لحظة الدهشة أقرب إليها من الإنجليزية الأمريكية- وهي تملس على ظهره، وتصل يدها إلى شريط كثيف طويل، ماذا حدث؟ يجيبها بافليك مندهشاً هو الآخر، ثم يرى في المرأة وهو يدير رأسه شريطاً طويلاً من شعر ذئاب أحمر، بطول ظهره!

سأحمل مقعد الراوي، وأنصرف.

أتوجه وأنا أحمل المقعد تحت ذراعي إلى بارك أفينو، لكنني
سرعان ما أعود، لا إلى شيراتون، بل إلى جنة الفطائر، لكن لا ضرورة
من وجودكم وأنا أدس فطائري المفضلة في جوفي.

ملحوظة:

يقال إن الوصية التي سحبوها من مؤخرة باريا بها سلاح سري، وكان لها علاقة بالحقيبة النووية منذ وقت بعيد. أما الآن فقد صارت الحقيبة رقمية، وتعمل بالكمبيوتر، لكن بقيت شفرة الوصية مستغلقة عليهم. وهو ما أسعد سيلفا. قد تستلقي على قفاها من الضحك، وتظل تضحك. بصفتها سيلفا، لا ثعلبة. الثعالب ترى العالم بطريقة مغايرة تمامًا، وهو ما يستحق أن يكون موضوعًا لقصة أخرى، لكن حكايتنا هذه انتهت.

ألوح لكم بكرسي، وأنصرف إلى رواية أخرى.

ملحوظة الأديب:

كتب دافيد جارنيت رواية امرأة في ثوب ثعلبة (1922)، وصدرت بالتشكيكية بنفس العنوان (1969)، استلهم الأديب فيركورس الرواية في روايته سيلفا (1961)، وصدرت بالتشكيكية عام (1965). حول فيها الأديب فيركورس الثعلبة إلى امرأة. استلهمت بدوري الروائيتين، وربطت بين الحكائيتين، تحول الثعلبة إلى امرأة، والمرأة إلى ثعلبة مجددًا، وعلى العكس من جارنيت وفيركورس وضعتها في سياق تاريخي، وتابعت عمليتي التحول خطوة بخطوة.

11 أغسطس 2017، وحتى 28 إبريل 2018.

جائزة "Magnesia Litera" لأفضل رواية تشيكية 2020

كتب دافيد جارنيت الكاتب والروائي البريطاني رواية امرأة في ثوب ثعلبة (1922)، وصدرت بالتشيكية بنفس العنوان (1969)، استلهم الأديب فيركوس الرواية في روايته سيلفا (1961)، وصدرت بالتشيكية عام (1965). حول فيها الأديب فيركوس الثعلبة إلى امرأة.

استلهم يرشي كراتوخفيل في الرواية التي بين أيدينا بدوره الروائيتين، وربط بين الحكائيتين، تحول الثعلبة إلى امرأة، والمرأة إلى ثعلبة مجدداً، وعلى العكس من جارنيت وفيركوس وضعها في سياق تاريخي، وتابع عمليتي التحول خطوة بخطوة، في مزيج ساحر من الفانتازيا والخيال، والسردي شديد الإمتاع. حيث تنتقل الأحداث بين شخوص الرواية بأسلوب غاية في الإحكام والبراعة كالكاميرا السينمائية التي في يد الراوي، الذي يقوم بالتركيز على أحداث بعينها، ويقوم عامداً بإغفال أحداث أخرى.

رواية شديدة السحر والغرابة، مكتوبة بقلم بارع، وترجمة رشيقة شديدة السلاسة.

يرشي كراتوخفيل (1940): روائي تشيكي، حصل على العديد من الجوائز داخل بلاده وترجمت أعماله إلى كثير من اللغات الأجنبية. من مواليد منطقة مورافا شرق التشيك، وارتبطت بها غالبية أعماله. من أشهر رواياته: "رواية للدببة"، "غناء منتصف الليل"، "أفيون"، "حكايات الحكايا"، "حكاية سيامي"، و"حكاية خالدة". آخر أعماله هي رواية "ثعلبة في ثوب امرأة".

